كتب
ثقافية

دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث



بقلم عبد الله الركيبي

تقديم صالح جودت



كتب ثقافية

دراسات
في
الشعر الجزائري الحديث

بقلم

عبد الله ركيبي

تقـــديم

هذا الكتاب جزء من صميم تاريخ الثورة الجزائرية ، لان الادب في اية أمة حية ، لا يســتطيع ان ينفصـــل عن تاريخها . وقد اثبتت الجزائر انها في طليعة الامم الحية .

ونحن نخطيء ابلغ الخطأ حين نعتقد أن الثورة الجزائرية قد دامت سبع سنوات ونصف السنة ، وانتهت بتوقيع اتفاقية « ايفيان » .

فالثورة الجزائرية ليست وليدة هذا الجيل ، بل لقد بدأت منذ مائة وثلاثين سنة ، أعني منــذ وقوع حادث « لطمة المروحة » المشــئوم ، الذي استغلته فرنسا لانزال قواتها في أرض الجزائر ، لتستعمرها بعد ذلك طوال هذه السنين .

واذا كنا نعي من الصفحات القديمة لهــذه الثورة ، قصــة كفاح الامير عبد القادر الجزائري ضد الغزاة الفرنسيين ، فالحقيقة التي لا يجوز أن تغيب عن وعينا ، أن الثورة الجزائرية لم تخمد منذ ذلك الحين .

ثم انها لم تنته بتوقيع اتفاقية إيفيان . بل لعل الاستقلال السياسي هو بداية الثورة الحقيقية ، كما كانت الثورة المصرية ، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بداية للثورة الحقيقية في مصر ، لا نهاية لها .

وقد حاول الفرنسيون ، على مدى العهد الذي اســـتعمروا فيه ارض الجزائر العربية ، أن يخربوا القـــيم الروحية هناك ، فأقاموا بين سكان الجزائر وأخوانهم من سكان المغرب العـــربي ستارا حـديديا ثم اقاموا بينهم وبين عرب المشرق ستارا حديديا ، حتى أصبحت جميع معالم الجزائر مجهولة لنا تماما .

وهكذا استطعنا ان نتصل بالادب الفرنسي ، من شعر ونثر وقصــة ومسرحية ، ولكننا لم نستطع أن نتصل بالادب الجزائري نظرا للنطاق السميك الذي ضربه الاستعمار حوله ، ولم نشتم من أدب الجــزائر طوال هذه الاجيال الا النفحات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتي أتاح لها الفرنسيون أن تعبر الحدود ، ليزعموا انها دليل على تبعية الجزائر التراث الفرنسي ، وعلى تأثر العقول الجزائرية بالثقافة لفرنسية .

وحاولوا ــ الى جانب ذلك ــ أن يقتلوا اللغة العربية في الجزائر ، ويمنعوا تعليمها الا في أضيق نطاق بدائي ، لكي تموت هذه اللغة ، تقديرا منهم لاهمية اللغة بين مقومات القومية .

واذا كانوا قد نجحوا في اشاعة اللسان الفرنسي في أرض الجزائر ، فانه مما يدل على عمق عروبة ابناء الجزائر ، أن اللسان العربي لم يمت

فيهم أبدا ، وان القومية العربية ظلت فيهم حية نابضة تدعوهم الى مواصلة الكفاح الى يوم النصر .

ولهذا الكتاب الذى بين أيدينا اكثر من قيمة أدبية . ولكن أكبر هذه القيم ، انه يكسر الستار الحديدى الذى ضربه الفرنسيون على أدب الجزائر طوال هذه السنين ، حتى عشنا نقرأ كل آداب العالم ، الا ادب الجزائر ، وحتى خيل الينا ذات يوم انه لم يعد فى الجزائر شعر عربى بالمرة ، من قلة ما ترامى الينا منه قلة تكاد تصل الى حد العدم .

ولهذا فان الاديب عبد الله ركيبى يفاجىء قراء الادب فى المشرق العربى ، بكتابه هذا مفاجأة سارة .

وانى لانصح نقاد الادب فى المشرق العربى ان يتناولوا شعر هذا الكتاب برفق كبير ، ولا يقيموا دراساتهم له على الاسس النقدية المعروفة . ذلك لان سكان الجزائر ، قد حرموا الثقافة العربية أجيالا . وفرضت عليهم ثقافة أجنبية ، فتلكأت السنة شعرائهم وتلعثمت راغمة ، ولم تلمع منهم الا قلة محدودة فى أضيق نطاق .

ومع هذا فان شعراء الجزائر قد استطاعوا — وسط ظلام الاستعمار وبطشه — أن يتنفسوا وأن تخرج انفاسهم حرى بالسخط على الاستعمار والاعراب عن الآمال القومية والدعوة الى الكفاح وان يرسموا — على مدى الأجيال — صورا صادقة للحياة القاسية التى عبرت بهم طوال هذه السنين .

اذن فلنقتصر فى الحديث عما فى هذا الكتاب من شعر على مهمة العرض دون النقد الى أن يشتد ساعد الجزائر المستقلة ، وتتحرر ثقافتها ، ويقف علمها العربى شامخا ، وينشأ الجيل القادم من بلابل الجزائر ، مأوه شعراء موهوبون وادباء مأمولون ، ليرووا لنا القصة الكاملة فى أبلغ لغة وأجمل روى .

صالح جودت

المصادر الهامة لهذه الدراسة

١ – مجموعة البصائر القديمة والحديثة .

٢ – مجموعة مجلدات الشهاب .

٣ – مجموعة وادى مزاب .

٤ – مجلة الآداب .

٥ – مجموعة جريدة الاسبوع .

٦ – مجموعة جريدة المجاهد .

٧ – شعراء الجزائر للزاهرى طبع بتونس ١٩٢٧ ج ١ ، ٢ .

٨ – الشاعر محمد العيد آل خليفة – تاليف أبى القاسم سعد الله .
طبع بدار المعارف المصرية ١٩٦١

مقـــدمة

اذا كان الشرق العربى قد تعرف الى مدارس النقد الحـديثة ، وظهرت فيه اتجاهات مختلفة للقصة من الرمزية والكلاسـيكية الى الواقعية الحديثة ..

واذا كان أيضا قد ظهر فيه .. دعاة للشعر الحر الحديث ، الى غير ذلك من النظريات والقضايا الادبية ، فالمغرب العربى لم تقم فيه مثل هذه المدارس ، ولم تظهر به هذه الاتجاهات ، ولا قام منه من يدعو الى مثل هذه المذاهب الجديدة .. التى كانت سببا فى معارك نقدية طويلة بين ادباء المشرق العربى ، معارك بين القديم والحديث . فهذه المعـارك الحادة طورا ، والهادئة تارة ، لم يعرفها أدباء المغرب العـربى ، ولـم يحاولوا آن يخوضـوها . فقد اكتفوا ــ فى معظم الاحيـان ــ بدور « المتلقى » الذى يأخذ دون ان يعطى ، ويتقبل الآراء دون أن يناقش ، ودون أن يتخذ موقفا مستقلا يعبر به عن وجهة نظره . وهـذا شيء يلفت النظر ويدعو الى التسـاؤل : « لماذا لم تقم مثل هذه الحركات والمذاهب بالمغرب العربى ؟ ولماذا لم يتخذ أدباء المغرب العربى موقفا ايجابيا تجاه هذه المذاهب والقضايا الأدبية الحديثة ؟ »

أعتقد أن سبب ذلك يرجع الى أن المغرب العربى عاش ظروفا أكثر اضطرابا وقلقا من المشرق العربى نسبيا . فالمعارك الحربية ، والاضطرابات السياسية الدائمـة ... لم تترك له الوقت ليناقش أو يفكر فى مثل هذه القضايا الادبية . فى حين أن المشرق العربى كان يتمتع بنوع من الهدوء والاستقرار النسبى . وهذا السبب نفسه هـو الذى يفسر « تأخر الادب » فى المغرب العربى . ولا يعنى هذا : انه ليس هناك أدب ، وانما يعنى : ان هناك أدبا لم يبلغ المستوى الذى نرجوه له .

وقد حاولت فى هذه الدراسة ، أن أكتشف بعض الجـوانب فى الشعر الجزائرى ، وأن أزيل ما علق ببعض الاذهان .. من أنه لا أدب فى الجزائر . وانما فيها ثورة .. ومعركة .. وحرب . فحاولت أن الفت الانظار الى ان فى الجزائر أدبا .

فيها شعر يجهله الكثيرون من أبناء العروبة .. يجهله حتى الادباء الكبار الذين يتزعمون حركة الفكر والادب فى العالم العربى . وحتى « الى زمن قريب جدا » لم يعرفوا عن الادب فى الجزائر سوى اشـياء قليلة ، بل : لم يعرفوا عنه شيئا .. الا بعـد أن ترجمت بعض آثار كتابنا باللسان الفرنسى . وعندئذ فقط أدركوا أن فى الجزائر أدبا حيا جديدا .

عرفوا ان هناك قصاصين كبارا أمثال « محمد ديب » و «المعمرى»

« وكاتب ياسين » و « الحداد » وغيرهم من كتاب القصة .. الذين عرفهم العالم الغربي قبل أن يعرفهم العالم العربي .

أما الادب ، أما الشعر الذي اتخذ لغة الضاد اداة للتعبير والبيان . فهم لا يعرفون عنه شيئا ، وان عرفوا .. فمعرفتهم لا تتجاوز النظرة السطحية البسيطة . فليس هناك من قام بدراسة حول الأدب الجزائرى .. وحاول ان ينفض عنه غبار النسيان والاهمال . ولعل هذا الجهل والاهمال يتساوى فيهما غير الجزائريين مع الجزائريين أنفسهم .

واذا كان هناك مبرر لغير ادباء الجزائر ، فليس هناك عذر اصلا بالنسبة للجزائريين — فنحن المسئولون — أولا وبالذات — عن تراثنا الفكرى ، وعن هذا الجهل والاهمال اللذين غمرا أدبنا ، حتى جعلاه مغمورا .. لا يكاد يعرف عنه الناس شيئا ..

انه من واجبنا ان نجمع هذا التراث ، ونبحث عنه .. فى مصادره ، ونجمع اشتاته المتفرقة .

ولعل هذا من اكبر العوائق لدراسة الادب الجزائرى ، فهو — الى الآن — لم يجمع فى مصادر يمكن ان يرجع اليها القارىء .. أو الدارس .. دون أى عناء وجهد ، فالادب الجزائرى — والشعر بالخصوص — لا يزال مشتتا فى ثنايا الصحف والمجلات والنشرات ، فلكى تعرف شيئا عن الشعر الجزائرى ، فلا بد أن ترجع الى هذه الصحف والمجلات التى قد تجدها ، وان وجدتها .. فقد لا تعثر فيها على ما يفى بالغرض . ذلك أن هذه الصحف والمجلات قد مضت عليها عشرات السنين ، ثم انها لم تستمر فى الصدور بالتوالى . اذ كانت تظهر آنا ، ثم تختفى آنا آخر ، فطالما تعرضت للحجز أو الافلاس والمصادرة .

انا لا اقول اننى تعبت فى جمع هذه المتفرقات ، فالذى يعرف هذه الحقيقة ، يقدر الجهد المبذول .

وبهذه المناسبة .. يطيب لى ان اشكر الاستاذ المؤرخ الكبير عثمان الكعاكى مدير مكتبة العطارين التونسية الذى أتاح لى فرصة الاطلاع على بعض هذه المجموعات من الصحف والمجلات ، وأشكر كل الزملاء الذين ساعدونى فى هذه الدراسة التى ما قصدت بها سوى ان اعرف بالشعر الجزائرى بقدر الامكان .

وبعد : فقد حاولت — فى هذه الدراسة للشعر الجزائرى — ان أبين : كيف انه كان تعبيرا صادقا عن حياة الشعب . وكيف سجل أطوار حياته . وكيف سار فى طريق التطور . بجميع مراحله التى مر بها .. أو مر بها الشعب الجزائرى ، من انطوائية فى أول الامر ، الى دعوة وعمل ، ثم الى يقظة وانتباه ، وأخيرا الى ثورة وانطلاقة جديدة .

فالشعر الجزائرى الحديث .. قد مر بمراحل اربع ، هى نفس المراحل التى مر بها الشعب ، فكان الشعر مرآة صقيلة .. عكست — بصدق واخلاص — عواطف الشعب وانفعالاته ؛ فهو شعر الشعب قبل أى شىء آخر .

لم يكن شعر طبقة أو هيئة خاصة أو حزب بعينه .. وانما كان لسانا صادقا . عبر عن آلام الشعب وطموحه واحلامه .

ومن ثمة : فقد خلا من تلك الارستقراطية البغيضة التى تبدو لدى البعض من الشعراء الذين كانوا يتفننون وينشدون أشعارهم لاشخاص معينين . ومن هنا قلت قصائد المناسبات فى الشعر الجزائرى ، وكاد ينحصر فى موضوع واحد ، هو : شعر الوطنيات وشعر السياسة ، وقضايا الشعب .. وهذا ما يفسر روح السخط والتمرد والتشاؤم . فى شعرنا الحديث .

لقد استمد شعرنا الحديث هذه الروح من حياة الحرمان والكبت اللذين عرفهما الشعب الجزائرى طيلة الحكم الاجنبى . فان كنا نلاحظ فيه روحا تشاؤمية ، فانها من هذا النوع الذى يدعو الى الثورة والنضال ، لا التشاؤم السخيف الذى يدعو الى الانطواء والزهد فى الحياة . معنى هذا : أنه ليس شعرا تشاؤميا ــ بل العكس هو الصحيح ــ فهو شعر تفاؤلى الى أبعد حد . وانما توجد فيه « نغمة تشاؤمية » محببة . تبعث فى نفسك التطلع والاستفسار عن اسبابها ودواعيها ، كما تجعلك تحس بأن هناك انسانية تتألم وراء هذه النغمة ، وتصبو الى غد أفضل ، وحياة أكرم .

وهناك الى جانب هذا كله ميزة أخرى فى الشعر الجزائرى ، هى انه شعر حماسى . فالحماسة تطغى عليه فى كل مراحله ، ما عدا المرحلة الاولى التى كان الشعر فيها ــ أن صح أن نسميه شعرا ــ شعرا انطوائيا سلبيا .. يدعو الى العزلة والفرار من الواقع ، والهروب الى الصوامع والمساجد . وفيما عدا هذه المرحلة ، نجد الشعر الجزائرى .. كله حماسة ، وثورة وغليانا . ثورة على الجهل والفقر والمرض ، ثورة على الحياة الاجتماعية العفنة ، ثورة على الظلم والاضطهاد ، ثورة على أعداء الجزائر . فروح الثورة أصيلة فى الشعب العربى فى الجزائر وهى ليست بنت اليوم فقط وانما هى تجرى فيه منذ الازل ، وسنلمسها من خلال هذه الدراسة .

وسنلمس الاسباب التى تعاونت على تغذيتها وتعميقها ، كما سنرى الفرق واضحا ــ من حيث الصياغة والاسلوب ــ لكل مرحلة من المراحل الاربع التى مر بها الشعر فى الجزائر .

وانا فى هذه الدراسة قد مزجت بين النقد والتاريخ والدرس ، ولم أعمد للتاريخ .. الا كعامل من العوامل التى توضح الفرق بين شعر مرحلة وأخرى لأن هدفى الاول والاخير ــ من هذه الدراسة ــ هو التعريف بالشعر الجزائرى ، والكشف عن بعض ما فيه من طاقات تعبيرية ،، وتجارب انسانية .

وارجو ان اكون قد قدمت للقارىء العربى الكريم فى هذه الدراسة صورة ــ ولو أنها موجزة ــ عن الشعر فى الجزائر ــ حتى يعرف أن فى الجزائر : أدبا عربيا ، كما أن فيه : ثورة عربية كبرى .

والله ولى التوفيق ..

القاهرة فى أغسطس ١٩٦١

ع . دكيبى

الفصــل الأول

شعر الانطواء

توطئة :

لا بد لمن يتصدى لدراســة الادب فى الجزائر ــ والشـــعر منه بالخصوص ــ أن يتعرض للعوامل التى ساهمت فى تطويره ، والاحداث التى مرت بالشعب الجزائرى ، ليدرك مدى تعبير هذا الشعر عن روح الشعب ، ومدى مسايرته للواقع الجزائرى . وهذا « بالطبع » يدعو الى أن نلقى نظرة مجملة على حيـــاة الفكر ، وسير الأدب ، منذ الغزو الفرنسى .. حتى يومنا هذا .. لتكون دراستنا : أقرب الى الصـدق ، والصق بالواقع .

والواقع : أن الشعر فى الجزائر قد مرت عليه عهود وفترات تأرجح فيها بين اليأس والأمل مرة وحـــاول أن يدفع بعجلة التطور الفكرى الى الامام مرة أخرى .

والذى يلفت النظر هو أن هناك حلقة من حياة الشعر قد انقطعت .. أو كادت تنقطع ، وتبدأ هذه الفترة منذ بداية الغزو الفرنسى حتى أوائل هذا القرن .

ذلك أن آخر شعراء هذه الفترة كان الأمير البطل عبد القادر الذى سجل بعض الأحداث والوقائع التى عاشها الشعب الجزائرى فى حروبه الطاحنة ضد الغزو الفرنسى منذ سنة ١٨٣٠ حتى أسر الامير . ولن نتعرض لشعر الامير فى هذه الفترة فقد درسه الكثيرون ، وعرفه معظم المثقفين ولا يجهله الا الذين لا ينتمون للثقافة والفكر .

وقد يكون هناك شعراء ، وقد يكون هناك شعر فى هذه الفترة القاتمة فى حياة الجزائر السياسية والفكرية . ولكن الذى نعرفه : أن الشعب الجزائرى .. فى هذه المرحلة .. قد حيل بينه وبين الثقافة العربية ، اذ حاول الاستعمار الفرنسى ــ بكل ما يملك من قوة وسيطرة واغراء ــ أن يضرب حجابا صفيقا .. بين الجزائر وبين العربية والعروبة بغرض أن يمحو الجزائر من سجل التاريخ العربى مهما كان الثمن .

فبالاضافة الى خنق الحريات ، وكم الافواه الوطنية ، والضرب على أيدى الذين تنزع انفسهم للماضى ، أقول : بالاضافة الى كل هـذا فتح المدارس الفرنسية ليفرنس الجزائر ، وسن القوانين الجائرة التى تجعل الجزائر جزءا من فرنسا . وسلك ســياسة البطش والدمار

تارة ، وسياسة الاغراء والوعد تارة أخرى . فكان من نتيجة كل هذا : خمود في القريحة وركود في الفكر ، وهمود في الارواح .

وبالرغم من ان الشعر في هذه الفترة .. قد فتر ، وخمدت روحه فان روح الشعب لم تخمد .. ولم تفتر ، بل تفجرت ، وقامت ثورات شتى في مختلف جهات الجزائر .

فثورات المقراني ، وأولاد سيدي الشيخ .. وغيرهما من الثورات التي وقعت في هذه الفترة .. انما كانت تعبيرا عن روح السخط والتبرم والكراهية للنظام الاستعماري المستبد ، ولأساليبه الوحشية .. التي حاول أن يطمس بها روح النضال في الشعب الجزائري .

وكرد فعل لهذه السياسة اتجه الشعر — كما يبدو من بعض النماذج — الى العزلة ، والانطواء على الذات ، واجترار الأحزان .. في صمت وسكون ، فظهرت المدائح النبوية — تماما — كما ظهرت في عصر المماليك .. يوم أن هبطت الثقافة العربية الى الحضيض ، ولجأ الشعراء الى الصوامع ، ينشدون السلو . والهدوء ، ويترقبون رحمة الله : ويظنون .. بذلك .. انهم قد أدوا ما عليهم من واجبات : لانهم فضلوا حياة الآخرة على هذه الحياة الفانية .

هذا ما وقع بالجزائر في هذه الفترة حيث اتجه الشعراء الى التقرب الى الله ، والى مدح الأولياء الصالحين ، والتغني بالتقوى .. ونعيم الآخرة .

ولا داعي للاستشهاد في هذا الموضوع ، لانه معروف للجميع ، ولأن الشعب العربي .. تكاد تتشابه ظروفه في هذا المعنى الى حد كبير .

وقد نلوم « نحن ابناء هذا الجيل » هؤلاء الناس الذين فروا الى الصوامع والمساجد ، وتركوا الشعب يناضل وحده ويقاوم ، وقد نحملهم مسئولية ما حدث لنا في هذه الفترة ، ولنا الحق في هذا كله — ولكن لومنا هذا .. لا يدعونا الى أن نجردهم من بعض المزايا ، وأولها أنهم حافظوا على العربية .. ولو بهذا القدر الضئيل .

قلنا : ان هذه الفترة قد امتدت في الجزائر حتى مطلع هذا القرن . ومنذ بداية هذا القرن .. حتى الحرب العالمية الأولى .. نلاحظ حركة وتطورا بسيطا في الشعر الجزائري . فهو ، وان لم يطفر طفرة كبيرة .. قد انفلت من الصومعة والمسجد لينطوي على نفسه . وهذا ما جعلنا نعنون للشعر .. في هذه المرحلة .. بشعر الانطواء .

الانطواء على الذات

قلنا ان الشعر في هذه الفترة ، غادر المسجد والجامع ، وابتعد — الى حد ما — عن الاضرحة والاولياء .. ليغلق على نفسه الباب ، وينظر الى الحياة من زاوية خاصة ، هي : زاوية الذات المحرومة .. والنفس المكبوتة . فقد اتجه الشعراء — في هذه الفترة الى انفسهم يبحثون عنها ، كما اتجهوا الى الزمان والدهر يحملونه ما يقاسون في هذه الحياة من شقاء وعذاب . وما يلاقونه من صدود وحرمان .

فالشاعر الأمين العمودي في هذه المرحلة - كغيره - يرى : ان الدهر .. هو سبب بلائه وعذابه ، انه هو الذي يقف في طريقه ويسد في وجهه أبواب الأمل .

لماذا ؟ ؟

لان نفسه طموحة تصبو الى العلا .. وهو يفتخر بأنه : اذا كتب ... فكأن السماء قد أمطرت ، اما اذا حدث .. فقد تفجر البركان. واذا نظم ... فانه يأتي قراءه بما لم يات به حسان قبله .

نفسي تريد العلا والدهر يعكسها   بالقهر والزجر .. ان الدهر ظلام
ان الزمان سطا عني بسطوته   كما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام

وهو القائل :

فاذا كتبت يقال أمطرت السما   أو فهت .. قيل تفجر البركان
واذا نظمت أتيت قرائي بما   لم يأتهم قبلي به حسان

واذا كان العمودي ساخطا على الزمان ، كافرا بما ضربه عليه من حجاب ، ومتبرما بهذا الدهر الذي يقف سدا في وجهه ، فهناك الشاعر المولود بن الموهوب ، وهو وان شارك العمودي في السخط والتبرم ، الا أنه يدعو الى الصبر والتأني ، لأن الزمان الجائر سيزول وستمر أيامه ، وستتبدل الأحوال ، فان بعد الحزن السرور .

اذا جار الزمان عليك حينا   فصبرا .. فالزمان له سرور
ولا تنظر لحادثة ألمت   فان الحزن يتبعه السرور

واذا كنا قد رأينا : أن الشعر في هذه الفترة قد اتجه هذا الاتجاه السلبي القاتم ، الذي لم يقدم حلولا ، ولم يشارك الشعب في مأساته ، ويحاول أن يخفف من الارهاق الذي يعاني منه الشيء الكثير ، فهناك من حاول أن يخرج به الى شيء من الشمول ... ولكن في غير افصاح ، بل في صوت مبحوح ، ونغمة فاترة ، ونبرة خجلى . فالذي خرج عن ذاته .... في الغالب .... يتجه نحو الدين ، والقلب ، والضمير الديني .

والمعروف أنه في هذه الفترة : والى ما بعدها حتى الثورة المباركة الحالية : كانت : الزوايا والتكايا وأربابهما ... قد شوهوا الدين ... وألبسوه لباسا زريا ، واستغلوه لأغراضهم الخاصة . وطبقا لسياسة استعمارية قذرة ، قد انتشرت الزوايا بشكل فظيع في الجزائر ، فكل قرية لها ولي صالح ، وكل مدينة لها أولياء صالحون . وكان الاستعمار الفرنسي يشد من أزر دعاة هذه الدعوة التي الصقت بالاسلام التهم والأباطيل ... وهو براء منها ، وسنتحدث عن هذا في محله ان شاء الله .

قلنا : ان الشعر قد حاول أن يخرج من قوقعته الضيقة . ليتحدث في أشياء جوهرية . وهذا الشاعر المولود السابق . قد حاول أن يمزق السكون ليخوض في موضوع هام ، موضوع له جلاله وحرمته عند

الشعب الجزائرى ، لأنه هو الملاذ الوحيد الذى بقى له ، والذى لم يستطع الاستعمار أن يقتلعه من نفسه وقلبه ... رغم انه قضى على معالمه ذلك : هو الدين ..

يقول الشاعر : ـ

ألا يا قوم ما الاسلام هذا ... ودين الله رب العالمينا
أتى الاسلام يأمرنا بعلم ... وسعى .. فى المنافع ما حيينا
وجمع بين دنيانا وأخرى ... تدبر قول خير المرسلينا

والحقيقة : ان الشعر ... بعد أن كسر ومزق حدود الذات الضيقة ليتحدث فى مسائل جوهرية . .. لم يعمد الى الأسلوب الأدبى الذى يحرك النفس ويغذى العاطفة ... انما عمد الى أسلوب الوعظ والارشاد ، وهو الأسلوب الذى طغى على شعرائنا فى أغلب الأحيان .

ولعلك تعجب معى « أيها القارىء الكريم » عندما ترى الشعر فى هذه الفترة قد أخذ يلتفت الى المجتمع ليساهم فى حل مشاكله .. فيتحدث عن المرأة .. . فيرثى لحالها مرة ، ويحملها مسئولية ما يحدث للناس من مشاكل مرة أخرى ، فهى عند الشاعر صالح خباش ـ : انسانة تستحق العطف والرثاء ، فقد تركوها بين عباءة وشقاء ... مهمومة ، مغلولة الأيدى لا تستطيع أن تتحرك .. ولا أن تشارك فى الحياة لأنها مسجونة وراء الحيطان ، محرومة من كل شىء .

تركوك بين عباءة وشقاء ... مكثوبة فى الليلة الليلاء
مغلولة الأيدى بأسوا بقعة ... محفوفة بكتائب الارزاء
مسجونة محرومة مزجورة ... ملفوفة بملاءة سوداء

وانه لمن الانصاف : أن يسجل لهذا الشاعر هذا السبق فى هذا الميدان ـ ميدان المرأة ـ حيث كانت المرأة العربية عامة ، والجزائرية خاصة ، تعيش فى عزلة عن المجتمع ... حتى مطلع النهضة الحديثة ، فنحن نسجل له هذا السبق ، بالرغم من أسلوبه المهلهل ، وبالرغم من هذه (المكثوبة) !!! ولعله يقصد المكروبة .. أو الكئيبة .

أما العمودى .. فهو على نقيض خباش ، اذ يرى أن المرأة .. هى روح كل بلية ، وانها فتاكة ... حتى برب التاج والاكليل ، وانها همازة ، لمازة ، سريعة التقلب والتحول ، فهى لا تثبت على حال أبدا . فهى منبع الفتن والشرور :

هى روح كل بلية فتاكة ... حتى برب التاج والاكليل
همازة ، لمازة ، صناعة ... للترهات ، سريعة التحويل
هى منبع الفتن التى عنها نهى ... ما جاء فى الأحكام والتنزيل

فهذه النظرة للمرأة نظرة جاهلية ، تعبر عن رواسب من الماضى ٠ ٠ مازالت .. عالقة ببعض العقــول من أبنــاء العرب ٠ فلا زالوا ينظرون اليها على انها ٠٠ مصيبة لابد منها ، وانهــا مخلوق شرير لابد من ســد الباب في وجهه ، ولا بد من سجنه فى المنزل حتى نأمن شره ٠

وعلى أية حال فقد رأينا من الشــعراء من حـاول أن يخوض فى الفترة ٠٠٠ لم يخرج الى أفاق رحبة واسعة ليشارك الشعب همــومه وألامه ، فلم يتحدث فى الحيــاة السياسية بالمرة ، ولا صالح القضــايا الجوهرية ٠ ٠ الا بلمحات سريعة بتراء كما شاهدنا فى الأمثلة السابقة . وانما المهم أن تتكلم وتظهر رأيك ولو كان خاطئا ، ولو ان الشعر فى هذه مواضع حيــوية هامة ، ويعطيها وجهة نظره ، فليس المهم أن تسكت ،

بيد أنه لا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن الزاهرى ٠ ٠ صاحب شــعراء الجزائر ، قد عالج بعض هــذه القضايا الوطنية ، ولكن فى غير شــمول ووعى ، ولابد من ان نســجل له شــيئا فى هـذا الميدان وقد أعجبت بقصيدة له ٠٠ قالها فى طفلة جزائرية لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها الغض ، عندما اختطفهــا طبيب فرنسى يحمل درجة الدكتوراه فى الطب اختطفها من (سانتوجـين) بالجزائر العاصــمة ـ فاغتصبهــا ٠ وهى قصيدة طويلة ، تصــور هذه الحادثة الوحشية ،التى تظهر بجلاء ٠ ٠ ٠ اخلاق الفرنسيين جميعا ـ حتى المثقفين منهم أيضــا ـ وكيف كانوا ينظرون الى الشعب الجزائرى ٠ ٠ ولن أنقلهــا كلها ، بل انقل منها هذه المقطوعة ٠ ٠ هذه البداية التى تقطر حزنا وألما ٠

يقول الشاعر :

شد ما تلقاه من وقد الضــلوع	**طفــلة فى مســتهل العمر**
سامهــا فظ من العلج خليع	**شــقوة الأسر وســوء المنكر**

ولعلك تلاحظ هذه النغمة الجــديدة ، وهذا التحرر من الشــعر التقليدى الذى يبدو غريبا من شـاعر عاش فى بيئة تقدس المــاضى ولا ترضى عنه بديلا ٠ وانا أحث القــارىء الـكريم ، أن يرجع الى هــذه القصيدة ، التى تعتبر : انموذجا ، فريدا ، حيا ٠ ٠ فى هذا الموضوع الذى مثل مأساة انسانية فريدة ٠ انها مأساة الجزائر كلها التى نكبت بأحقر استعمار ، وأقذر حكم ٠

ان هــذه القصة : تسجل العار الأبدى الذى لطخ سمعة فرنسا ، وسمعة الثورة الفرنسية ٠ ٠ ٠ التى قامت لتحرر الانسان ، كما تدعى ٠٠ فرنسا ٠

والملاحظ فى هذه الفترة : ان الشعر .. قد خلا تماما من الأغراض الشــعرية الأخرى ٠ كالغزل ، والفخر ، والمــدح ، والرثاء ٠٠ الى آخر ما تعود الشــعراء أن يتعرضوا له فى أشعارهم ٠ وسنبين أسباب هذا فى باقى دراستنا للشعر الجزائرى فى المراحل القادمة ٠

وخلاصة الأمر : ان الشعر في هذه المرحلة ، هو : وان كان تعبيرا كاملا عن هذه الفترة الحالكة من حياة الجزائر ، الا أنه ٠٠٠ فى تعبيره هذا ٠٠ كان قاصرا عن أن يصورها أدق تصوير ، ويعبر عنها أجمل تعبير ٠ فقد رأينا من بعض النماذج السابقة ، انه شعر مهزوز فى شكله ومضمونه ٠ لاحياة فيه ولا ماء ٠ ٠ جاف كجفاف حياة الناس يومئذ ٠ أسلوبه سخيف ٠٠ ركاكة فى التعبير ، وخلخلة فى النسيج ، وخمود فى الروح ، وفتور فى العاطفة ، ودع العروض ٠ فهذا آخر شيء يمكن أن يهتم به الشاعر فى هذه المرحلة ، لأن همه أن يقول شعرا ، ولو على حساب الخليل ٠٠ وبحوره ٠٠ وأوزانه ٠

والواقع : أن غرضنا الأول من هذه الدراسة ، أن نعطى صورة ولو كانت موجزة ... عن الشعر فى الجزائر لنذكر الذين يجهلون حياة الفكر في الجزائر ، والذين لم يهتموا بالجزائر ٠ ٠ ٠ الا من حيث كونها جزائر الثورة ٠

وقد قصدنا في دراستنا هذه أن الجزائر كانت قبل الثورة متمثلة فى تاريخها المجيد وفى ثقافتها العربية رغم جهل الكثيرين بهذه الثقافة ٠

وليس العيب على الجزائر ، وانما العيب على من لم يهتم بها ٠ ٠ وبحياتها ، وسنرى فى القريب نماذج من الشعر الذى عبر عن نبضات الشعب الجزائرى بصدق واخلاص ، وسجل آمال هذا الشعب الذى ضرب الرقم القياسى في البطولة والنضال ٠ حتى نربط الحاضر بالماضى ، وحتى نفهم أن الحاضر وليد الماضى ، وان المستقبل وليد الحاضر ٠ ٠ ونعرف أن الجزائر : كانت دائما تحس بعروبتها وتحن الى الماضى المشترك ، وتهفو الى المستقبل المشرق الباسم ٠ ٠ ٠ الذى يلم شعث الأمة العربية ، ويرد لها ما فقدته ٠ ٠ من عز ومجد وحضارة ٠

وسنرى فى دراستنا المقبلة تطور الشعر فى الجزائر ، ثم تطور الفكر والتفكير لدى الشعب الجزائرى ، وما مدى تعبير هذا الشعر عن عواطف وانفعالات الشعب ، وبالتالى : هل كان الشعر مرآة صادقة تعكس أحلام وآمال الشعب ، أم كان نوعا من البهرجة والتهريج ؟ ثم أخيرا : هل كان الشعر عاملا ايجابيا أم سلبيا فى حياة الشعب ٠

كل هذا سنجد الجواب عنه فى باقى دراستنا ان شاء الله ٠

الفصل الثاني

شعر الدعوة

(١) دعوة الى النهوض

ليس من شك فى أن الشعب الجزائرى قد عاش أحداثا ضخمة فى فترة مابين الحربين الأولى والأخيرة ، ففى هذه المرحلة جدت أحداث وظهرت أفكار جديدة نتيجة للحرب ٠

فقد شاركت الجزائر فى هذه الحرب ٠ ٠ ٠ مرغمة ، وقاتل الجزائريون ٠ ٠ جنبا الى جنب ٠ ٠ مع الفرنسيين ، وظنوا أنهم بذلك قد دافعوا عن الحرية والديمقراطية ، وبالتالى سيرد لهم شىء من هذه الحرية والديمقراطية ٠ ولكن فرنسا قلبت ظهر المجن للجزائر وأخذت تناور وتساوم ، وتبذل الوعود تلو الوعود ٠ ٠ ٠ ولا شىء بعد ذلك ٠

ووجد الشعب الجزائرى أنه لابد من عمل جدى آخر غير الأمل فى عدل فرنسا ٠ فأخذ يتلفت هنا وهناك ويستنجد ويفكر ، وأخذ يبحث عن نفسه وسط هذه الدوامة التى يعيش فيها من جهل ، وفقر ، وتأخر ٠٠٠ فى شتى الميادين ٠

وكان لابد من ظهور حركات تعبر عن هذه التحركات الجديدة التى أخذت تهز الشعب هزا وتبعث فيه روحا وأملا جديدين ٠

فى هذه الفترة بالذات ظهرت معظم الحركات الوطنية والاصلاحية وانتشرت الدعوات ، وتعالت الأصوات من كل فج ٠ ٠ ٠ تنادى بالنهوض ، كما تنادى بالتحرك والتحرر من هذه القيود الكثيرة التى رزح تحتها الشعب أجيالا طويلة ٠ فظهرت حركة « نجم أفريقيا » بزعامة الحاج على عبد القادر فى سنة ١٩٣٥ كما تأسست سنة ١٩٣٥ « جمعية النواب » تحت قيادة فرحات عباس وابن جلول ٠ وبرزت الى الوجود عام ١٩٣٦ منظمة اصلاحية بزعامة الامام عبد الحميد بن باديس ٠ باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وقد قامت هذه الحركة فى الواقع ٠ ٠ ٠ بعد الحرب الأولى مباشرة ، وبدأت تدعو الى تحرير الدين من الوهم والخرافات التى مسخته حتى أصبح شبحا بلا روح ٠

وفى سنة ١٩٣٧ تأسس « حزب الشعب الجزائرى » ، بزعامة مصالى الحاج الذى اصبح فيما بعد يحمل عنوان « انتصار الحريات الديمقراطية » ٠ وفى سنة ١٩٤٣ وقع ٢٨ نائبا بيانا برياسة فرحات

عباس ، وفي سنة ١٩٤٤ تم تاسيس « احباب البيان والحرية » ٠ وقد جمعت هذه المنظمة كافة الحركات الوطنية بدون استثناء وقد انقسمت هذه الحركة بعد ٨ مايو ١٩٤٥ ٠

ونحن لانريد ان نتتبع هذه الحركات ونستقصي اخبارها واتجاهاتها ٠ وانما قصدنا من كل هذا ان نبين فقط تاثير هذه الأفكار والحركات والاتجاهات على الشعر بالخصوص ٠ لنعرف مدى تعبير هذا الشعر ٠ ٠ ٠ عن هذه الفترة ، ولندرك دور الشعر في هذه المرحلة من حياة الجزائر ٠

ولا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن هذه الفترة قد حفلت بحركة ونشاط ثقافي هائل بالنسبة الى الظروف العصيبة التي عاشها الشعب اذ ذاك ٠ ففي هذه المرحلة ، ظهرت صحف شتى بالعربية والفرنسية ، وانك لتعجب عندما تعرف أن صحف « الشهاب » و « البصائر » و « وادي مزاب » و « المساواة » و « الشريعة » ، وغيرها من المجلات الاسبوعية قد ظهرت في هذه الحقبة ٠

حقا اننا لنعجب كيف قامت هذه الصحف في فترة كان الجهل قد ضرب أطنابه فيها وكان الاستعمار يحاول أن يقضي على العربية بشتى الطرق الظاهرة والخفية ٠

وهذه الصحف ــ في الواقع ــ هي المصدر الأساسي لمعرفة النشاط الثقافي والفكري في هذه المرحلة ٠

ان الأصوات كانت قد تعالت ، « كما قلنا » في هذه الفترة ٠٠٠ تنادي بالاصلاح مرة ، وبالمساواة والنهضة تارات اخرى ، وكثرت الدعوات والآراء ٠

نادى البعض : بالحرية صراحة ، ونادى البعض الآخر : بحقوق سياسية تحترم الحريات الفردية ، والبعض نادى بالاندماج ٠ وهكذا كثرت الفرق والأحزاب ، وتبع ذلك بلبلة في الافكار ٠

وجاء الشعر يعبر عن كل هذا ، جاء ليكون صدى معبرا عن كل هذا ٠٠٠ دون أن يرتبط باتجاه معين ، ودون أن يكون بوقا لهذا أو ذاك انما جاء ليكون مسجلا أمينا لأماني الشعب وآلامه ، وليقول كلمته ، وكلمة الشعب ، لا ينافق هذا ، ولا يجامل الآخر ٠

واعتقد : ان عدم ارتباط الشعراء بقيود الحزبية ، واغلال الاتجاهات ٠٠٠ قد أفاد هذه الحركات جميعا ، وبالتالي : أفاد الوطن بالبعد به ، عن خصومات ومهاترات لا تفيد الا العدو المستعمر ٠

وبالرغم مما يبدو من ان الشعر كان يساير حركة الاصلاح ، الا أنه لم يكن عبدا لها هي الأخرى ، والدليل على ذلك : أن هناك شعراء لم يرتبطوا بفكرة الاصلاح ، ومع هذا فهم يدعون اليها ، ويؤازرونها ، ويدافعون عن مبادئها ٠ وفكرة الاصلاح هذه : هي التي نادى بها « الامام

باديس ، كما أسلفنا ، والتي تدعو الى نبذ الأوهام والخرافات التي ليست من الدين في شيء ، وتحـــارب أهل الزوايا والتكايا المعروفين بتبعيتهم للاستعمار ، والسير في ركابه ، وخدمة أغراضه ·

ومن هنا رأينا أن نعنون للشعر في هذه الفترة ، بأنه : (شـــعر الدعوة) دعوة الى نبذ الخلافات والحزازات ودعوة الى التكتل والوحـــدة ودعوة الى التعليم والثقافة ، ودعوة الى التحرر ·· تحرير العقـــول من الوهم والجمود ·

ونحن ـ عندما نقدم نماذج للشعر في هذه الفترة ـ لا نقصـــد سوى أن نضرب أمثلة فقط ، ونعطى فـــكرة للقارىء حتى يطلع على بعض المظاهر ، ويعرف : كيف كان الشعب العربى في الجزائر يناضل في صمت وسكون دون أن يسمع به·· حتى أخوته ·· وأشقاؤه · وليعـــرف أن الشعب الجزائرى لم يسكن ، ولم تفتر همته ، ولم يستكن ·· في أي وقت من الأوقات ·

ثم اننا في هذه الدراسة ـ منذ البداية حتى النهـــاية ـ لا نأتي بعينات لكل الشعراء ·· ولا نقصد التعريف بالشعراء ، وانمـــا قصدنا الأول والأخير ··· هو التعريف بالشعر الجزائرى أولا ثم عن مدى تعبيره عن حياة الشعب ··· ومسايرته للواقع الجزائرى ، ولهذا فقـــد يكون هناك شعراء مجيدون لم نســـجل لهم أشعارا ، ولم نستشـــهد ببعض مقطوعاتهم ··· مع اكبارنا وتقديرنا لانتاجهم ·

ولعل المسئولية لا تقع علينا ، فهناك « من الشعراء » من لم نعثر له على قصائد في المراجع التي رجعنا اليها · كما أن بعدنا عن الوطن ·· حال بيننا وبينهم وبين شعرهم ، مع العلم بأن هناك من له ديوان كامل ·· ولكن لم يطبع بعد ، لأسباب معروفة واضحـــة ، أولها : أن الطبع في الجزائر تعترضه عقبات لايجهلها أحد · ثم أن البعض منهم ربما ما زال في السجون والمعتقلات ، وعسى أن تتاح لنا الفرصة ··· لنتمم النقص الذي لم نتعمده ، وانما اضطررنا اليه اضطرارا ·

معظم الشعر ـ في هذه الفترة ـ كان دعـــوة ملحة صريحـــة الى النهضة والأخذ بأسباب الرقي والتقدم ·· فالشـــاعر « محمد العيد » يستصرخ فتية الوطن وأبناء الضـــاد في الجزائر ، ويدعوهـــم الى أن يحكموا الرأى ·

لمـــاذا ؟ ···

لأن جيرانهم قد قطعوا أشواطا كبيرة في طريق العلم والاختراع ·· ووقفوا هم يترددون بين وهم ووهن ، يقاسون شتى أنواع الأذى والتجنى، وقد سكنوا الى الذل والاحتقار :

يا حماة البـــلاد يا فتية الضـــاد	ترى هـــل لـــكم من الرأى مغن
ســـار جيرانكم مع العصر شوطا	ووقفتم ما بين وهم ووهن
تحت شتى القوى تقاســـون منها	ما تقاســـــــون من أذى وتجن
أين منـــكم مهـــابة وانتصـــاف	أم ســـكنتم الى احتقـــار وغبن ؟

والشاعر يوبخ الشباب الذى يدعى أن هذا الهوان الذى يعيشون فيه ... انما كان السبب فيه الاجداد . فالذى يسىء الظن بالاجداد أجدر به أن يحتقر . فهناك شواهد بارزات على ما كان للاجداد والآباء من عز وسلطان . اسأل « تلمسان » و «بجاية» و «تيهرت» و «القلمة» تخبرك بان الفن قد ازدهر بها .. يوم أن كانت محط انظار الشرق والغرب ، ومعهدا يؤمه الناس من كل فج وصوب .

فى تلمسان ، فى بجاية ، فى تيهـ	رت ، فى القلعة .. ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغرب	مثـــابا كمعهــــد وكحصن
وعليهـــا من الملوك ذوى العزة	والبـــاس كل مهـــران فطن
دعموا البر، دعموا البحر.. بالأعلام	من منشئات مـــدن وســفن

ويستمر الشاعر فى ضرب الأمثـــلة من ماضى الآباء والأجــداد ، معددا مآثرهم الخـــالدة ، ومبينـــا أمجادهم التى مازالت آثارها ماثلة للعيان .

أما الشــــاعر رمضان حمود ، فقد دعا الشعب الى أن يسير للعلا والرقى لانه موطن الامجاد ، ومقــر للكرام الفضــلاء ، ويدعوه الى أن يرفع رأسه عاليا ، ويزاحم من علا نجمه ، ويترك الخوف للجبنــــاء ، ويدعوه الى أن يطالب بحقه وبما فيه خير لبنيه النبلاء وهو اذ يدعوه الى كل هذا ... انما يرسم له طريق الدعوة . ويوضح له اساليب العمل ، فهو لايريد منه أن يطالب حقه بذل وهوان ، أو بالحرب والدمار والدماء بل بسلم وهدوء وهدى ، وبعلم ونشاط وذكاء :

موطن الأمجـــاد . . سيرا للعلا	عشت حـرا يا مقـر الفضــلاء
ارفع الرأس وزاحــم من عـــلا	وأترك الخوف لقلب الجبنــــاء
وأنشــد الحق وطـالب ما ترى	فيــه خـــيرا لبنيك النبــلاء
لا بــذل وهـــوان وصـــغار	لا بحرب ودمــــار ودمــــاء
بــل بسلم وهــدوء وهــدى	وبعــــلم ونشـــاط وذكاء

وهكذا يبدو لنا من هذه المقطوعـــة : ان الشعب الجزائرى .. لم يكن فى يوم ما من عشاق الدم ، ولا من تجـار الحروب . بل كان ... فى كل فرصة تسنح له ... يطالب بحقه بالطرق المشروعة ولم يعمد الى الحرب .. الا عندما استنفد كل الحيــــل . وطرق كل الابواب .. فاغلقت فى وجهه . ولم يركب المراكب الصعبة الا بعد أن حيـــل بينــه وبين حقه فى الحياة الكريمة ، والعيش الرغيد .

ويستمر الشاعر يضرب الأمثلة ، ويوجه الأنظـار الى الغرب ... الذى بنى القصــور الشامخة ، وملك الدنيـــا ، واســتولى على البحر والبر والهواء .

انظروا الغرب بعــــلم ما بنى	من قصـــور شـــامخات للعلاء
ملك الدنيـــا وما يتبعهـــا	من تراب وميــاه وهـــواء

وقد كان شعراء العرب تقريبا ، في هذه الفترة ، يضربون على هذه النغمة ، ويحاولون أن يوجهوا الافكار نحو العلم الذى أخذ به الغرب ففاز ... وأتى بالأعاجيب ، في حين أن الشرق سادر في أوهامه وخرافاته وأحلامه • وترى هذا ... بالخصوص ... في شعر الرعيل الأول من شعرائنا ، مثل : الرصافي ، وحافظ ، وغيرهما ... من شعراء العرب الذين عاشوا في أحلك فترة مرت بالشعب العربي •.

وفي مقطوعة أخرى للشاعر نفسه ، نراه يصرخ في وجه ابناء جلدته ، فيدعوهم الى النهوض • ويتعجب : كيف يرضون بحياة الهوان ، التي هي حياة البقر ، ويعيشون في حسرة وألم • وينسبون ذلك الشقاء للقضاء والقدر • ويؤنبهم على حياتهم التافهة التي يسرون بها ، في حين أن شعبهم قد تردى في مهاوى الحفر • ثم يلتفت الى الشرق •• الى الوطن الأكبر •• هذا الوطن الذى ــ هو الآخر ــ يعيش في تفاهات مثل الجزائر تماما ، ويهدده بالوعيد ... اذا نبذ الدين وكفر بالمثل :

نهوضا نهوضا بني جلدتي	الام نعيش بطى الخبر ؟
الام ؟ وفي الأسر أرواحنا	ونحيا هوانا حياة البقر
أنمسي ونصبح في حسرة	وننسب ذاك الشقا للقدر ؟
أراكم تسرون بالتافهات	وشعبكم في مهاوى الحفر
أرى الشرق يسعى الى حتفه	اذا نبذ الدين ثم كفر

وكان الشاعر لم ير من أبناء جلدته ، ولا من أشقائه ، من يستمع الى ندائه ، ويصغي الى صوته المبحوح ، فيصرخ صرخة مدوية يائسة ، يطلب فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا ، أو موتا كريما يسر :

فيارب عجل بفتح مبين	والا بموت كريم يسر

(٢) دعوة للنضال

قد يعجب الدارس للشعر الجزائري ــ في هذه الفترة ــ عندما يعثر على شعراء يدعون دعوة صريحة الى الجهاد والنضال • وينادون بالكفاح من أجل الوطن •

ذلك : ان الشعر كان في معظم أحيانه ، يدعو الى النهوض والتحرر •• ولكن في هدوء ، واتزان ، وفي غير ما عنف أو قوة • ولعل هذا « كما أسلفنا » مرجعه الى أن الشعر لم يتقيد بأحزاب واتجاهات خاصة ، وانما كان ــ في غالب الوقت مرآة للشعب لا لحزب أو هيئة سياسية • ومن هنا كان الشعر الجزائري مرآة صافية عكست « بحق » انفعالات الشعب وآراءه في مجريات الأحداث التي عاشها •• واصطلى بنارها •

وقد يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من سوء الحال الذى عليه الشعب ، فيعدد النكبات والمصائب التي يتخبط فيها هذا الشعب :

ثم يختمها بالدعوة الى النضال ، والى الاستشهاد ، كما فعل « أمير الشعراء محمد العيد » . الذى تألم كثيرا من هذه الجوائح والرزايا ، وضاق بهذه الأغلال التى حزت فى ساعد الشعب ، وضاق ذرعا بدسائس الاستعمار ومكائده :

أصابتنا الجوائح والرزايا	وأعوزت المرافق والرفود
حنت أعناقنا الاغلال ظلما	وحزت فى سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم والشكايا	فاخفتها الدسائس والكيود
وانغضت الرءوس لنا هزوا	وانكارا وصعرت الخدود:

بعد هذه المظالم وبعد هذا الشقاء ماذا بقى للشعب أن يفعله ، بقى له طريق واحد لامناص منه ولا هروب . بقى طريق النضال ليحقق نصرا وعزا ، أو موتا كريما :

فقم يابن البلاد اليوم وانهض	بلا مهل فقد طال الرقود
وخض يابن الجزائر فى المنايا	تظللك البنود أو اللحود

وقد لبى الشعب هذا النداء ، وقام يمسح العار .. ليعيش عزيزا مكرما ، أو يموت موت الشرفاء الأبطال .

أما الشاعر رمضان حمود ، فهو يدعو كذلك الى الجهاد ، فى غير ما تلعثم أو تستر أو تقية . مثل البعض من الشعراء الذين كانوا يهمسون بهذا همسا ويخافون التصريح ، فيعمدون الى التلميح .. خشية الموت أو السجن ، وسأنقل مقطوعة صغيرة لهذا الشاعر من قصيدة طويلة فى هذا الموضوع ، وقدأعجبت بها .. لا لأنها من روائعه .. بل لأن فيها نغمة حزينة ... تتألم – عن صدق – من حالة الوطن .. وما يعانيه من أبنائه ، ومن أعدائه فأبناؤه لاهون سادرون فى ترهات وقشور ، وأعداؤه ينهبون خيراته وهم فرحون مطمئنون .

لن ينال العز شعب كالجماد	فقد الاحساس خال من شعور
لن ينال المجد شعب بالرقاد	يترك اللب ويعنى بالقشور
انما المجد قرين بالجهاد	ووئام وثبات فى الظهور

ونسجل هنا حقيقة للتاريخ ، وهى : ان بعض هذه القصائد من شعراء مزابيين ، اخوان لنا ، كانوا يتألمون لما عليه الوطن . ويشاركونه آلامه وأحزانه .. بالرغم من دسائس الاستعمار وأذنابه الذين حاولوا أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد . وكانوا يهدفون الى خلق طوائف فى الجزائر ، مثل : عربى ، مزابى ، بربرى . الى آخر هذه الدعوات التى سفهها الشعب ، وكفر بها ... وبدعاتها الآثمين .

والواقع : أن هناك مقطوعات كثيرة لشعراء كثيرين قد ضربت على هذا الوتر ، وتغنت بالجهاد والنضال . ودعت الى وحدة الجزائر واتحادها ، وسيرى القارىء – فى باقى دراستنا – نماذج أخرى تؤيد هذا الذى ذهبنا اليه . وليس من وكدنا أن نكثر من ضرب الأمثلة وانما غرضنا الأصيل ، هو : اعطاء صورة صادقة لحياة الشعب من

خلال الشعر والأدب ، ومن خلال الفكر ، حتى يتابع تطورات الأحداث ويعرف نفسية هذا الشعب الثائر .

والحقيقة التى لايمكن اغفالها أو تجاهلها فى هذه المرحلة ، هى أن الشعر ، وان كان شعر دعوة أولا وقبل كل شيء .. الا أن هذه الدعوة .. كثيرا ما صاحبها شيء من التشاؤم ، وشيء من الشكوى المرة ، التى كان يحس بها الشعب وهو يعيش فى خضم أحداث جسيمة سنعرض لها بعد قليل . وكثيرا ما يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الظروف . والسأم من الحياة « كالشاعر رمضان حمود » الذى عاف الشباب ، ولم يجد فى العيش مايستحق أى عناء : فالدهر نحسه دائم والسعادة فى هذه الحياة : سراب خادع .

سئمت الحيـاة وعفت الشباب	ولم أر فى العيش ما يستطاب
هو الدهر لا ينقضى نحسه	وفيه السعادة مثل السراب

ويستمر الشاعر فى مثل هذه الأفكار السود .. يحاورها وتحاوره ثم فجأة يحس بأنه قد سار فى طريق ملتوية منحرفة ، ويشعر بأن الضعف قد استبد به ، وانه أصبح عبدا لهذا الضعف . فيثور على نفسه فينقلب فجاة الى أسد هائج شجاع ، فينشد صارخا :

أقول جهارا ولا أنثنى	ولو كان فى القول مر العتاب
دعونى فما المجد الا العنا	وخوض الجلائل عند الطلاب
فليست تنال العلا صدفة	ولكنها بركوب الصعاب

ثم يأخذ الشاعر فى تانيب الذين يلومونه على هذا الموقف لأنه يفعل كل هذا لصالح أمة يريد أن يناضل من أجل حقوقها التى ضرب بينها وبين أن تنالها بحجاب صفيق من الدعايات الكاذبة والقوة الظالمة ، وأصبحت تعيش بين ظفر وناب ، وتوالت عليها الذئاب تنهشها ، وتنوشها .. من كل جانب . فمن حق الشاعر أن يقف الى جانب الشعب ويكافح من أجل هذه الأمة :

دعونى أناضل عن أمة	توارت حقوق لها بالحجاب
دعونى أناضل عن أمة	فضائلها بين ظفر وناب
دعونى أناضل عن أمة	عليها توالت شرور الذئاب

وبعد ، فقد رأينا كيف كان الشعر .. يتجاوب مع الشعب ، ويسير معه ، ويعبر عن أحلامه وآماله . ولكى تتم الصورة لابد من أن نتعرض لبعض الأحداث الهامة ، فى هذه الفترة ، بشيء من التفصيل ، حتى نكون قد رسمنا هذه الصورة فى اطارها الصحيح . وبالتالى لتكتمل ملامحها بذهن القارىء الكريم .

(٣) احداث تاريخية كبرى

لعل الفترة مابين سنـــــة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ هي الفترة التي بدا الشعب يتلمس فيها طريقه الصحيح ، ويبحث عن ذاته ، وينشد كيانه وذاتيته التى ضاعت بين ضباب الفرقة والاختلافات الحزبية ٠

ففي هـــذا الظرف الذي كثرت فيه « النيابات » ، وتفتحت فيه الأفواه التى تحلب ريقها لامتصاص البقية البـــاقية من دماء الشعب ٠ ظهرت « زعامات » كثيرة .. كلها .. تزعم انها تعمل لصالح الجزائر ، فوجد من يلبس مســوح الرهبان ويخفي تحتها ذئابا كاسره ووحوشـا متعطشة للسلب والنهب كما وجد من يدعى أنه نائب عن الامة ، ولاسيما وقد فتحت فرنسا باب النيابة ونشرت الكراسي في برلمانها للبعض ممن لايهمهم سوى الكراسي . واحس الشعب بالخطر يهدد كيانه ويوشـك أن يقضي على مصيره وذاتيته العربية التى حـــافظ عليهـا قرونا من الزمن ٠

أحس الشعب بذلك فقام يدعو الى مؤتمر عام شامل يضم جميـــع الاتجاهات والهيئات لتوحد صفوفها ، وتعمل ـ ان كانت جادة مخلصة ـ لفائدة الوطن لا لفائدة الافراد ٠

وتم اجتماع هذا المؤتمر بالعاصمة سنة ١٩٣٦ ، وضم ـ كمـــا قلنا ـ جميع الاتجاهات والأحزاب ، هذا المؤتمر الذى حمل شعار المؤتمر الاسلامي الأول يعتبر بحق حادثا فريدا فى هــــذه الفترة القلقة المليئة بالاضطراب والاختلاف ٠

وانبثق عن هذا المؤتمر نواب ذهبوا الى فرنســـا ليفاوضوها في بعض المطالب السياسية ٠ وكان يوجد اذ ذاك وال على الجزائر يدعى «المسيو فيوليت » ، وهو معروف بقوميته بعض الشيء ، ووعدت فرنسا بشتى الوعود ، وماطلت كالعـــادة ، ووجدت من النواب من أثرت عليه ٠٠ فجرته الى جانبها ، وأعطته مقعدا وثيرا « كابن جلول » وغيره ممن كانوا مستعدين فى أى وقت ليخونوا الشـــــعب من أجل جلسة مريحة في البرلمان الفرنسى ٠

قلنا : لقد إستبشر الشعب بهـــذا المؤتمر ، وظنه بداية لحركة شاملة لتوحيد الجهود من اجل العمل الجدى الصحيح فقام الشعر يسجل هذا الحدث التاريخى الضخم ٠ فالشاعر « محمد العيد » القى قصيدة فى هذا المؤتمر يحيى فيه هذه الجهود البناءة ، وهو يرى أن هذا المؤتمر ، هو الذى يجب مشاهدته وحضوره ٠ لأنه يعتبر بمثـــابة اللبنة التى سيقام عليها صرح الجـــزائر ومجدها ٠ وبه نكون قد أحيينا المـــآثر والجدود ٠ فمن هذا المؤتمر يرن صدى صوت الامة حرا يدوى مثل الرعد المجلجل ٠ كما أن الشعب سيقتحم السدود التى حالت بينه وبين حقه فى الحياة الكريمة ٠

اقيمى لا تفارقك السعود — سلام الله أيتها الوفود
شهدت اليوم مؤتمرا عظيما — أغر لمثله يجب الشهود
به تبنى الجزائر من جديد — وتستوحى المآثر والعهود
ونبعث صوتنا الشعبى حرا — به يدوى كما تدوى الرعود
ونقتحم السدود الى حقوق — حرمناها وان علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد — وأدركناه فاشهد يا وجود

ثم يوجه حديثه الى العدو الذى يماطل ويراوغ مرة، ويهدد مرة أخرى ، ويحاول بذلك أن يوقف عجلة الزمن . فيخاطبه الشاعر بهذه النغمة التى تدل على اليأس من هذه الوعود :

وجاءتنا الردود بألف بشرى — فما أغنت بهـا عنا الردود
متى توفى الوعود ؟ فقد مللنا — تساؤلنا متى توفى الوعود ؟

ولكن الشاعر الذى يتكلم باسم الشعب الذى طال انتظاره لهذه الوعود ، وطال ترقبه .. حتى مل الانتظار ، ويئس من أعدائه .

هذا الشاعر يلتفت الى ناحية أخرى غير المطالبة وغير المؤتمرات وغير التوسل .

يلتفت الى ابن الشعب ، الى ابن الجزائر ، أملها ، وذخرها الوحيد فى الدفاع عن حقها بلا مهل . فلماذا الانتظار والقعود ؟ وقد جربنا كل الوسائل فلم تجد مع هذا العدو اللدود . فما على ابن الجزائر الا أن يعمل على طرد هذا اللص الذى نهب خيرات بلاده ، فلا بد من خوض المنايا ، وتقحم الاهوال ، فاما نصر ترفرف بنوده شامخة ، أو موت كريم يجعل حدا لهذا الشقاء الذى لا خلاص منه الا بالاخلاص فى العمل ، والاقدام ، والعلم . فبهذه الثلاثة .. يسود الانسان فى هذه الحياة . وأما الذى يريد أن يبغى ... فسيمحقه هذا الشعب الخالد :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض — بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص — تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر فى المنايا — تظللك البنود أو اللحود
باخلاص واقدام وعلم — يسود على البرية من يسود
بغى الباغى رداك فخاب سعيا — وللباغى الردى ولك الخلود

وهذه القصيدة من أروع قصائد الشاعر ، ومن أقواها تعبيرا عن روح الشعب ، وأدقهـا تصويرا للأحداث فى هذه المرحلة التاريخية الهائلة .

واذا كان «العيد» قد حيا الوفود ورحب بها ، فالشاعر «سحنون» قد رحب بعودتها ، وهنأها بالسلامة فى الرجوع . بقصيدة أقل جودة من قصيدة « العيد » من ناحيتى الصياغة والمضمون .

يقول الشاعر :

مرحبا معشر الحماة الكرام — يا مثال الثبات والاقدام
مرحبا بالمنافحين بحق — عن حمانا وعزنا المستضام

ثم يوجه الخطاب الى الشعب ، يحثه على المضي وراء هـذا الوفد والالتفاف حوله :

انهم جنـدك المدافع حقـــا والمغـاوير ســاعة الاحجـام
هذه العصـبة العظيمة قـدرا فامتثل امرها تفـز بالمـرام

وقد اهتمت فرنسا بهذه الحركة الجديدة التى جدت فى حيـاة الشعب الجزائرى ، ورأت « كعادتها » أن تبعث بلجنة تبحث الحـالة فى الجزائر ، وتتقصى أخبار هذا الشعب ، وتشاهد ... عن كثب ... مجريات الأمور ، وسرت الدعايات والشائعات بأن هناك « فى الحقائب » حقوقا واصلاحات .

وطال الانتظار .. ولم يبد ما يطمئن الشعب على حقوقه ، فضاق الشعر ذرعا بذلك . وقام « الشاعر العيد » كعادته يسأل ويستفسر عن الحقوق التى نادى بها الشـعب ، فقال قصـيدة ، أعتبرها من أحسن ما قيل فى التهكم والسخرية والاستهزاء بوعود فرنسا الكاذبة . فهذه الحقوق التى قيل انها فى الطريق ... لم تصـل بعد ... فهل ضلت الطريق ؟ أم عاقهـا البحر عن الوصـول .. فعجزت عن أن تقطع لججه وشـطآنه ؟ . أم راقها البحر ... فأخـذت تسبح فيه لاهيـة بدرره ومرجانه أم انها أخــذت بسحر « بنات البحر » فاحتجبت عن اعـين الناظرين :

ما للحقوق اليـنـا غير واصـلة وقد سمعنا بها من منذ ازمان ؟
هل عاقها البحر عنا فهى عاجزة عن قطع ما فيه من لجج وشطآن؟
ام راقها البحر حسنا فهى سابحة تلهو بما فيه من در ومرجـان ؟
ام الحقت ببنات البحر فاحتجبت عن كل قاص من الرائين او دانى؟

وبعد ، فهذه السخرية الطريفة يتوجه بها الشاعر الى هؤلاء الذين يبحثون عن الشعب .. وهو أمامهم ، ويريدون أن يتقصـوا اخباره ، وهى ماثلة لعيونهم .. واضحة لا غبار عليها .. وهم فى بحثهم هــذا ... خائفون .. حذرون .. كأن الجزائريين من جنس الفيلان لا من بنى الانسان :

يا باحثا معنا فى كشف حالتنـا الى متى انت فى بحث وامعـان ؟
الى متى أنت منا خائف حــذر كاننـا فى البرايا جنس غيـلان ؟

واذا كان الشعر قد اهتم بهذا الحدث التاريخى ، فقـد اهتم بالنواب الذين انبثقوا عن هذا المؤتمر ، وتتبع سيرهم ومواقفهم ، فمدح من أخلص للشعب ، وهجا من خانه وتلاعب بمصالحه .

ومن المعروف انه فى هذه الفترة قد كثر النـواب الذين تحـدثوا باسم الشـعب . وكثرت النيابات .. حتى بات النـواب أكثر من أن يحصى لهم عدد ، لأنهم راوا « فى النيابة » مغنما لهم ، وتجارة تدر عليهم الربح الوفير ، والجـاه العريض ، دون ان يتجشـموا لذلك مشـقة ،

أو يتعرضوا لخطر .'. فيكفى ان تعلن ولاءك لفرنسا ، وتوافق سلفا على ما تريده فرنسا .. وشعارك في ذلك (نعم) ، فتصبح بذلك نائبا مرموقا ، وموظفا كبيرا .

هؤلاء النواب العملاء .. هم الذين أطلق عليهم الشعب عنوان (بني وى وى) الذين لا يرفعون أيديهم فى وجه فرنسا . وانما يسيرون فى ركابها ، ويأتمرون بأمرها . وليست الجزائر وحدها فى هذا ، وانما الشعب العربى يشاركها فيه . فنحن نعرف أن الشعب العربى قد ابتلى بنواب كانوا نوائب ومصائب عليه وكانوا اخطر عليه من العدو الاجنبى الغاصب . ولسنا فى حاجة الى ضرب الامثلة .. والحاضر يشهد بذلك .

يقول الشاعر محمد العيد في هؤلاء النواب : ـ

افدنى برأى فى النيابات هلحوت	**اساود فى قاعاتها أم وسائدا**
ومالك ترغي في النيابة موعدا	**فان ضاقمنها طأطا الراس هامدا**
الم يأتها أن المعابد حجرت	**على الذاكرين العامرين المعابدا**
وكم من مآو او مكاتب عطلت	**على أنها تهدى البنين المراشدا**

وبعد هذا التهكم بهؤلاء النواب الذين يشبهون «الوسائد» يرمى بها فى أى مكان دون أن تعارض . وتطاطيء الرءوس .. فى ذل وخنوع .. وكأنهم قد جهلوا ما يجرى فى وطنهم الذى حرمت فيه المساجد وحجرت المعابد ، واغلقت المدارس .. ومآوى أهل العلم ..

بعد هذه السخرية اللاذعة ، يوجه حديثه للنواب الذين كانوا سوطا يلهب ظهر الشعب . وسيفا مصلتا على رقبة الأمة ، ونسوا انهم كانوا قبل « النيابة » يعدون الشعب ، واصبحوا بعدها يتوعدون ويهددون هذا الشعب الذى أعطاهم ثقته :

فيا نائبا ناب البلاد بحادث	**وخلف شعبا قائما فيه قاعدا**
على اى ظهر كنت سوطك منزلا	**وفى أى نحر كنت سيفك غامدا**
ومالك ترغي فى النيابة موعدا	**الم تك من قبل النيابة واعدا**
ويامجلس النواب انك قاطع	**يدا كنتمنها «لو تبينت» ساعدا**

وهناك طائفة اخرى غير هذه قد مشت فى ركاب الاستعمار ، لم تتخذ النيابة سببا لمآربها ، وانما اتخذت التقرب للعدو بطرق مختلفة ، مثل التجسس ، أو التستر وراء الدين « كممثلين مزيفين للدين الاسلامى » أو موظفين من نوع آخر « كالقياد والآغات والباش آغات » وما الى هذه الالقاب التى هى منمخلفات الاتراك . والتىاطلقتها فرنسا على اذنابها ، السائرين فى فلكها ، مثل « البكوات والباشوات » فى مصر .

ووقف الشعر لهؤلاء ... كما وقف بالمرصاد لاولئك ، يرد عليهم ، ويكشف خياناتهم ، ويظهر حقائقهم للشعب الذى كاد يضيع بين هؤلاء .

وأولئك . فهذا الشاعر (فتى الوادى) وهذا هو الاسم الذى وقع به تحت قصيدته التى ندب فيها الفضيلة الجريحة التى أهدر دمها هؤلاء الأدعياء ولعله « مفدى زكريا » أو « رمضان حمودة » والمهم : هو أن الشاعر قد بكى بمرارة ، وتألم ألما فظيعا .. عندما شاهد الفضيلة تهدر كرامتها ، ورأى بعينيه : كيف تداس مقدسات الشعب :

ويلتاه خـذى يدى من وهادى	هـــذه ادمعى وذاك فـؤادى
يا لذكرى ســـودد قــد تنفى	تحت طيبـــات كل عصر تلاد
واشهدى مصرع الفضيلة كلمى	تحت اقدام فارعات العـوادى
صوبوها تفرى القـــلوب شظايا	اسمها فى صميم قلب البـلاد

لقد ذبحوا الفضيلة ، وداسوا حرمة الوطن ، وهمهم فى ذلك : أن ينالوا حظوة لدى أسيادهم الذين لم يبخـــلوا عليهم بالاوسمة والنياشين والالقاب والمراكز .. هؤلاء الذين يستحقون لعنة الشعب وغضب أبناء الشعب الاحرار :

همهم فى الحيــــاة خطة جاســو	س امين على حمى الأمـــاد
بهجة العيش أن ترى الشعب منكو	دا وتحظى بنعمـة الأسـيـاد
يتهادون بالوســامة والألقــاب	والكبـــــرياء أى تهــــــاد
يا لحـا الله اوجها ، رسم الشر	على صحنها هنـــات الســواد
وبطـونا ملئت ســـحتا وطانو	نا وبالذين شـــبكة الاصـــطياد

ولم يكتف الاسـتعمار « بطبخ » هـــذه العنـاصر واسـتغلالها ، واصطناع العناصر الخائنة ليستعين بها على قتـــل الروح الثـورية فى الجزائر واخمادها . بل انه عمد الى وسيلة اخرى ، هى اهم وسائله ، واكثرها قضاء على وحدة الشعب ، عمـد الى بث التفـرقة ، واثارة الفتن ، وتشتيت اقوى الشعب .. ببعث فكرة العنصرية ... محاولا استغلالها الى أبعد حد . فظهرت فكرة « العربى ، والبربرى ، والمزابى » وما الى هذه الترهات التى لم يؤمن بها الشعب فى أى يوم من الايام ، وانما عششت فى رءوس الفرنسيين الذين ظلوا يحلمون بها .. دون ان تتحقق فى الواقع .

ولم يسكت الشعر فى هـذه المرة أيضا ، وانما وقف ليدافع عن وحدة الجزائر ، وينادى بها ... كوطن للجميع ، فلا فرق بين العربى والبربرى ، والمزابى ، كلهم من أصل واحد ، وأرومة واحدة ، تجمعهم أرض واحدة ، وتظللهم سماء واحدة .

فالشـاعر « الزاهرى » يوجه خطابه الى المزابى الذى تعــرض للخطر مثل كل جزائرى ، ويذكره بأن الجزائر ، موطن الجميع ، ترابنا فيها واحد ، وهى الأم التى واست فى الصبا كل مرضع ، لا فرق بين هذا وذاك ، ويتعهد بأن : سيقضى لها حق الأمومة ، لانهـا بلاده ، ومحط ركابه وآماله . بل هى الجنة الفيحاء من قبل ان ينشأ ويولد .. ولو انه يحس بالغربة فيها . وهى العروس الجميلة التى تجلى فيها الحسن والجمال ، ومد العز فيها جذوره منذ الازل :

وليس لنا الا الجزائر موطن — ترابك فيها واحد وترابي
هي الام واست في الصبا كل مرضع — وفيها اهتدى الساعون سبل صواب
ساقضي لها حق الامومة انها — بلادي التي فيها محط ركابي
هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي — وان كنت ظلما نازلا بيباب
عروس تجلت في المحاسن خطبة — على جانبيه العز مد بنساب

كذلك لم يسكت الشعر عن بدعة ظهرت فى هذه الفترة ، هذه البدعة ، او هذا الحادث ، هو : (فكرة الاندماج) والدعوة الى الاتحاد مع فرنسا ، وقد كان الاستعمار ما يزال يذيع بأن الجزائر فرنسية ، وأنها جزء من فرنسا ، وان الجزائرى مواطن فرنسى ... الى آخر هذه الادعاءات والمغالطات التاريخية السافرة .

وقد وجد الاستعمار من يؤيده فى هذه الفكرة ، ويساند هذه الدعوة ، فوقف الشعر « كعادته » يسفه احلام العدو ، ويرد على من يؤيد فكرة الاندماج هذه . فهذا « الامام باديس » كان صريحا فى الرد على هذه الفكرة ، وكان صريحا فى موقفه عندما قال : ان الشعب الجزائرى شعب مسلم ، عربى الجنس واللسان ، يمت الى العرب بصلة النسب والدم والقرابة . والذى يدعى غير هذا ... فقد كذب ، أو أراد أن يدمجه فى فرنسا .. فهو يطلب المحال والمستحيل :

شعب الجزائر مسلم — والى العروبة ينتسب
من قال : حاد باصله — او قال : مات فقد كذب
او رام ادماجا له — رام المحال من الطلب

واذا كان الشعر الجزائرى قد اهتم بمجريات الأحداث داخل الوطن ، واهتم بالقضايا الوطنية الصميمة . فهو لم ينس القضايا القومية الاخرى . فقد تحدث عن مشاكل الشرق العربى ... وخاصة مشكلة فلسطين . وسنشير اشارة موجزة الى هذا ، لاننا سنفرد له حديثا مستقلا شاملا . وانما أردنا أن ننبه الى أن هذه الفترة ، التى غلى فيها مرجل الشعب • وطغت عليه الحوادث الجارفة ، لم تنسه القضايا الاخرى القومية ، وحتى الافريقية الاخرى .

فالشاعر « محمد العيد » قد حركته أحداث فلسطين ، خاصة ثورتها سنة ١٩٣٦ ، وأثارت فى نفسه شجونا وآلاما ، فراح يصب جام غضبه على « بنى التايمز » الذين جاروا على شعب عربى أصيل . ووقفوا ينظرون الى فلسطين كيف تذبح بيد عصابات صهيونية دون أن يحركوا ساكنا . بل كانوا يؤازرون اليهود على عرب فلسطين الاحرار . وماذا بقى للعربى الذى ديست كرامته ونهبت خيرات بلده ... سوى الحرب !؟ والعربى لا يخشى الحرب . فحرب البسوس ، وحرب الفجار ... تشهدان له بالشجاعة والبطولة ، والعربى : لا يركب هذا المركب الا اذا سيم خسفا وهو لا يرضى بالخسف ولا يستنيم الى القهر :

بنى التاميز قد جرتم كثيرا — فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
ألم يؤلمكم حرم مباح — وشعب يستجير ولا يجار

ونكبة اوجه بالكشف غير — لمثل جمالها صنع المجار
كم احتجت لظلمكم وضجت — ولكن في قلوبكم الحجار
اذن فالحرب للعربي داب — وهل تخفى البسوس او الفجار
شددتم قهرة فغدا انفجارا — وعقبى شدة القهر انفجار

وكما اسلفنا لم يسكت الشعر حيال القضايا الأخرى غير العربية، فقد شارك الشعر ايضا في ماساة الحبشة ... عندما هجمت عليها ايطاليا عام ١٩٣٥ فقام الشاعر « محمد العيد » يذرف الدمع الحار ... يواسي به اخوته الافريقيين ، ويؤنب «الفاتيكان» الذى بقى صامتا أخرس حيال هذه القضية التي مست المسيحية التي تدعو الى الحب والسلام ، فاذا بروما المسيحية تعتدى على دولة مسيحية اخرى .. هي الحبشة .

ما بال روما للاذى جردت — سيفا لها في دينها يطعن
نيرون روما قام من قبره — في ارضها يفتن من يفتن

ثم يوجه الشاعر نقده ولومه للشرق . هذا الشرق الذى وقف هو الآخر ساكتا لا يتحرك مثل الفاتيكان :

والشرق ويح الشرق مستغرق — في النوم لم تطرف له اجفن
يا شرق خذ حذرك من جيرة — هاموا بحب الجور .. مذ هيمنوا

ثم في نهاية القصيدة يختمها بنداء حار يعزى به الاحباش المظلومين، يريد مواساتهم بالقول ، وتعزيتهم بالكلام ، لان الجزائر تعانى نفس الشيء :

يا معشر الاحباش صبرا لما — يدمى من الجراح ما يدمن
انتم لنا . رغم النوى . اخوة — فما علينا خطبكم هين
ماعندنا حول سوى ما به — من التعازى تنبس الالسن

ومن هذه الدراسة الموجزة للشعر الجزائرى ، يتبين الى اى حد كان الشعر مرآة للاحداث ، ولسانا صادقا أمينا للتعبير عن احساس الشعب تجاه قضاياه : الخاصة والعامة ، الداخلية والخارجية .

وقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك ان الشعب لم يكن غافلا ولا ساهيا عن مجريات الاحداث ، ولا كان منطويا على نفسه كما كان أعداؤه يدعون عنه .

بقيت ملاحظة حول الشعر — لا بد من التعرض لها — وهي : ان الشعر في هذه المرحلة ، وان كان قد عبر تعبيرا صادقا عن الاحداث، وسجلها بصدق واخلاص، فهو من جهة اخرى : لم يتعرض الى مواضيع اخرى من حياة الشعب ، فيكاد غرضه الاول والاخير .. هو أن يسجل الاحداث السياسية البارزة دون أن يتحدث عن وصف الطبيعة ، او يعالج بعض النواحي الاجتماعية الاخرى .. كالفقر ، والمراة، وما اليهما من المواضيع الحية الاخرى ، ولعل للشعر عذرا في ذلك : أن هذه المرحلة .. انما هي مرحلة الدفاع عن الذات والكيان وتثبيتهما والدفاع عنهما .

هذا من حيث الموضوع . اما من حيث الصياغة والتعبير، فالشعر في هذه المرحلة قد حاول أن يبتعد ـ ما أمكن ـ عن الابتذال، وأن يعبر بالفاظ لها طابع الايحاء والرشاقة ، وان كان لم يتحرر من التعابير المألوفة .. التي تميل الى الطنطنة والفخامة الفارغة بيد أنه قد تحرر من الفاظ الوعظ والارشاد الى حد ما . مما يجعلنا نقرر : بأن الشعر بدأ يتطور تطورا لا بأس به ، ويحاول الانقلاب من السطحية ، وان بقي غارقا الى أذنيه في بحور الخليل ، وان لم يكن وفيا لها في بعض الاحيان . خصوصا لدى الشاعر « رمضان حموده » . والشاعر في هذه الفترة كان لا يهتم الا بأن يقول كلمته ، وأن يسمع صوته للناس ، ويسجل الوقائع .. دون أن يعتني ـ الاعتناء كله ـ بالناحية الشكلية التعبيرية .

ثم يجب الا ننسى : أن الثقافة العربية في هذه الفترة قد تعرضت لامتحانات قاسية ، وتعرضت لخنق ، بل لقتل كبير ، مما جعل الشعراء لايتصلون بالشرق الذى كان « شوقى » و « حافظ » . وأقرانهما ، قد اتوا بالمعجزات البيانية ، والروائع الشعرية الفذة . فمجال الشعر في الجزائر حينئذ كان ضيقا ، والشعراء معذورون .. الى حد كبير .. ان أردنا انصافهم ، ويكفى انهم كانوا لبنة في بناء صرح الأدب الجزائرى الحديث الذى سنتبين ملامحه في المرحلة الآتية ، والتى تليها بحول الله . . .

الفصل الثالث

شعر اليقظة

١ ـ شعر مأساة ٨ مايو :

تعتبر مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين : السياسية والثقافية .

فقبل هذه المأساة ... كانت السياسة تدور فى حلقة مفرغة ، افكار مهوشة مضطربة ، وأصوات ترتفع ثم تنطفىء ، ودعوات متناقضة ، وقوى موزعة مشتتة .. تبحث عن الطريق .

والشعب يقف وحده فى الجبهة ، يرقب كل هذه القوى المتصارعة المتطاحنة .

وجاءت الحرب الثانية ، فوجد الشعب نفسه يخوضها رغم أنفه ، وانتصر الحلفاء . وقامت مظاهرات فى الجزائر ... رفع فيها العلم الجزائرى « لاول مرة » جهارا ..

مظاهرات سلمية تعبر عن انتصار الحرية فى العالم الحر ، وترجو من وراء انتصار هذه الحرية أن تنال منها نصيبا يساوى التضحيات التى قدمتها الجزائر فى هذه الحرب .

فماذا كان رد العالم الحر على هذه المظاهرات السلمية

كان الرد : هو القتل الجماعى ، ففى خلال ظرف لم يتجاوز ٢٤ ساعة قتل من الجزائريين ما يزيد على ٤٥ الف نسمة ، منهم الشيوخ والاطفال والنساء ، حيث هدمت المساكن ، وأحرقت دواوين بأكملها ، وخاصة فى : خراطة ، وقالمة ، وسطف . وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب .

وهنا .. فقط .. أدرك الساسة الجزائريون ــ أو البعض منهم على الأقل ــ أن آمالهم فى فرنسا قد انهارت ، وأن الاساليب التى كانوا يعتمدون عليها فى كفاحهم قد تبخرت ، وأنها أصبحت غير مجدية بالمرة ، وأن الطريق أصبح واضحا ، والوسيلة أوضح . وأن الهدف قد تحددت معالمه الآن .

اذن فقد تبلورت الافكار ، وزالت تلك الغيوم التى كانت تغطى الحقائق ، وبات على الشعب أن يتشوف الى الأفق البعيد الملىء طريقه بالعقبات والاشواك والدماء . فليس هناك .. اذن .. سوى الكفاح .

الكفاح المنظم .. الكفاح الايجابي الفعال الذي يعتمد على تضحيات الشعب .. لا على العرائض والورق والاحتجاجات .

هذا من الناحية السياسية . أما الناحية الفكرية والثقافية .. فان الشعراء ، والطبقة المتفهمة ــ عامة ــ وجدوا انفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم ، ورأوا ... بأعينهم ... كيف تهان كرامه شعبهم ، وتداس حقوقه ، وهم مسئولون أمام الله والضمير والوطن . كما وجدوا شعبهم يعيش في جهل فاضح ، وفقر مدقع ، وذل ابدى فأخذوا معاولهم يهدمون هيكل الجهل المتداعي ، ويبنون صرح الثقافة قويا شامخا . فقاموا ــ فعلا ــ بدور توعية الجماهير ، وتنوير الاذهان ، حيث وجدوا في مأساة ٨ من مايو ... المعين الذي لاينضب .

ومن هنا اعتبرنا هذا الحدث .. بداية مرحلة جديدة في حياة الشعب ، وفي حياة الشعر والفكر ، وجعلناه بداية يقظة شاملة وعنونا لهذه المرحلة بعنوان « شعر اليقظة » .

ولعل المرحلتين السابقتين قد تداخلت فيهما الاوقات والازمنة ، بحيث لا يمكن تحديدهما تحديدا دقيقا مضبوطا . أما في هذه المرحلة .. فلا يمكن أن يختلف فيها اثنان .

وبالرغم من أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائرى ، وايقظته من غفلته ، وهزت العالم أجمع ، بالرغم من ذلك ، لم نجد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائرى ، أو حتى : تسجل هذا الحدث البارز ، ولم أدر لماذا ! !

ولعل لبعض الشعراء قصائد في هذا الموضوع ، ولكنى لم أعثر على شيء في المراجع التي رجعت اليها ، وهي التي كانت تنشر أغلب الانتاج الجزائرى في هذه الفترة .

بيد أنني وجدت قصيدة للشاعر « الربيع بوشامة » وان كانت متأخرة عن الحادث ، اذ أنه نشرها سنة ١٩٤٩ .كماوجدت قصيدة للشاعر « أحمد معاس الباتني » وهي قبل الثورة بقليل ، كما أنها لم تتحدث باسهاب عن مأساة ٨ مايو . ولم اجد للشعراء أو الشيوخ سوى قصيدة للشاعر الكبير « محمد العيد » وهي غفل من التاريخ . واللوم لايوجه لشعرائنا الشبان بقدر مايوجه الى شعرائنا الشيوخ .. لانهم هم الذين عاصروا هذا الحدث ، وعاشوا هذه المأساة ، ورأوا « بأعينهم » مقاومة شعبهم ، وظلم عدوهم .. وجبروته . فكان من حقهم أو من حق وطنهم عليهم .. الا يتجاهلوا أمرا كهذا . ثم ان تسجيل الحدث وحده لا يكفي . اننا نريد تصوير حياة شعب كامل ونضال أمة جمعاء ..

ومن الوفاء للحقيقةوالتاريخ : أن نسجل في هذه الدراسةللشاعر « الربيع بوشامة » سبقا وامتيازا في هذا الموضوع . فقد تحدث باسهاب عن هذه المأساة ، تحدث عن شهر مايو المشئوم .. وتحدث عن « خراطة » احدى القرى التي دمرتها قنابل فرنسا . فماذا قال « بوشامة » في شهر الدماء والدموع ؟؟

بدأ الشاعر قصيدته بالدعاء على هذا الشهر ، وبالسخط عليه . فقد فجعت فيه أقوام كثيرة ، وشابت فيه الصبية الصغار من أبناء الجزائر الرضع ، فهو شهر شؤم .. انماعت فيه وميعت ـ الصخور، وتفطرت الاكباد الرحيمة . فتاريخ هذا الشهر .. شؤم وكرب ، سطر من دم الاحرار ، ومدامع الايتام . واذا كانوا قد أعلنوا فيه السلام ، فابن الجزائر لم ير السلام ، وانما رموا به فى حرب وجحيم . ثم أخذوا ينهبون أمواله وحياته ، ويتشربون مهجته ، فى هيام ، ودون ما رحمة أو شفقة .

لقد طلبوه ليخوض معهم الحرب ويشارك فى الدفاع عن الحرية . وعندما حرروا بكفاحه أرضهم واوطانهم جزوه جزاء سنمار :

واليك ماقاله الشاعر « الربيع بوشامة » :

قبحت من شهر مدى الاعوام ... يا (مايو) كم فجعت من اقوام
شابت لهولك فى الجزائر صبية ... وانماع صخر من أذاك الطامى
وتفطرت أكباد كل رحيمة ... فى الكون حتى مهجة الايام
تاريخك المشئوم سطر من دم ... ومدامع فى صفحة الآلام
ان اعلنوا فيك السلام لقد رموا ... بابن الجزائر فى سوء ضرام
وتناهبوا أمواله وحياته ... وشربوا مهجاته بهيام
طلبوه للهيجاء حتى حرروا ... بكفاحه .. فجزوه بنت حسام

ثم يتابع الشاعر وصف هذا اليوم المشئوم حتى يصل الى ان هذا اليوم يجب أن يبقى رمزا خالدا لنضال الشعب يستمد منه الطاقة لمتابعة الكفاح .

لابد أن يبقى كرمز خالد ... يوحى الشجا ويصيح مثل الهام

وينتقل الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن أسرة نكبت فى هذه المأساة ولا يريد الشاعر سوى أن يعطينا صورة لما وقع للشعب الجزائرى المفجوع ، وحديثه عن هذه الاسرة : انما هو كانموذج فقط . ويبدأ الشاعر حديثه عن رب الاسرة وكيف قيدوه فى الاغلال عريان صاديا عطشان يسوقه الجند ـ جند فرنسا ـ للاعدام . واعدموا معه أبناءه وكيف كان هذا الاعدام ؟ لقد رموهم جميعا من حالق وتركوهم طعاما للسباع والوحوش . ولم يكفهم ان يرموا بهم من حالق وانما رموهم فى النار الملتهبة أيضا . وذهب الجميع وبقيت دارهم مفجوعة تندب أهلها. وبقيت مع الدار الزوجة الايم والأم الوالهة وولائد رضع .. بقوا جميعا يعيشون فى رعب وحزن وثكل فمن لهؤلاء جميعا بعد هذا الرزء الفظيع ؟ ليس لهم سوى الشقاء والالم :

القوه فى الاغلال نضوا صاديا ... واستيق بين الجند للاعدام
ورموا به وبولده من حالق ... جزر السباع كجيفة لسوام
وتتابع الاولاد ثم ابوهم ... يسقون فى النيران كاس حمام
ذهبوا وامست دارهم مفجوعة ... تبكى رزيتها وذل مقام
من للحليلة من لام واله ... وولائد من رضع وفطام ؟
لاذوا بحزن قاتل ومدامع ... مكبوتة تذكى اشد ضرام

ولم ينس الشاعر نفسه ، فقد ذكر ما قاساه هو فى هذا الشهر ـ شهر الربيع ـ شهر الحب والجمال ، شهر التفتح والسمر ، ولكنه بالنسبة للجزائر : شهر المصائب والدماء والنحس . ثم يختم قصيدته موجها الخطاب الى هذا الشهر ، يدعوه لينتقم من اعدائه ... وهو يتعجب من صمته . الم يشوه جماله أعداؤه ؟ وهذه الجثث التى امتلأ بها حرمه ، وهذه الآذان المصلومة ، والكبد الرطبة التى شويت .. وكانت من الذ الطعام لهؤلاء الوحوش . فارفع اذن شكوى من ضارع مبتهل قد كفر بالحكم والحكام ، واستعجل العقاب للغرب الذى طغى وتجبر وتضرع الى الله أن ينتقم منه بقواصم تقضى عليه وعلى ظلمه . وكنت اتمنى لو أن الشاعر قد توجه الى الشعب أيضا ليحثه على الانتقام والنضال من أجل سيادته وحرية بلاده . ولكنه « كعادة شعرائنا المتدينين » ينظر الى الاشياء بمنظار الدين .

يقول الشاعر مخاطبا شهر مايو

يا (مايو) مالك واجما لم تنتقم ... او ماساءك الظلم اسوا جام ؟ !
هذا حرامك بالدماء مشوه ... قد عج بالارواح والاجسام
مهج وآذان وكبد رطبة ... شويت وكانت من الذ طعام
فارفع الى مولاك شكوى ضارع ... يبرا من الحكام والاحكام
عجل لهذا (الغرب) من رب السما ... بقواصم مجتاحة وضرام

أما الشاعر « محمد العيد » فقد فجر فيه هذا الشهر ينابيع الاحساس المرير ، انه لم يستطع كتم هذا الاحساس .. لان جرح مايو لازال ينزو بالدم ، ولم يجد له آسيا يأسو جرحه . والشاعر يائس من الذين أحدثوا هذا الجرح . بل انهم مازالوا فى غيهم سادرين .

وتمر الليالى على هذا الجرح الدامى ، فلا يجد دواء منهم سوى العنف والبطش . وكلما رام الشعب برأ هذا الجرح .. زادوه جراحا أخرى أعنف وأشد ؛ وقد ضج هذا الشعب الجريح بالشكوى ـ ولكن لمن يشكو ؟ انه يشكو الى عدو لايرحم ولا يعرف الشفقة ولا العطف ولا العدل .. وقد سئم الشعب هذه الشكوى الى العدو ، وهل العدو يرحم او يحس بالجرح الذى كان السبب فيه ؟ .. اذن : فلم يبق على الشعب الا أن يخوضها شعواء بالمرهفات والتروس :

أأكتم وجدى او اهدىء احساسى ... وثامن مابى جرحه ماله آسى
وارقب ممن احدثوه ضمادة ... وهم فى جماح لم يميلوا لاسلاس
تمر الليالى وهو يدمى فلم نجد ... له مرهما منهم سوى العنف والباس
اذا ما رجونا برأه تزد افقا ... باحداث سوء وقعها مؤلم قاس
فيالجريح ظل ينكا جرحه ... ويؤذى بلا ذنب على أعين الناس
يضج ويستعدى بغير نتيجة ... ويشكو بلا جدوى الى غير حساس
سئمنا من الشكوى الى غير راحم ... وغير محق لا يدين بقسطاس
ولا خير فى عد المظالم وحدها ... اذا لم تبن عن مرهفات واتراس

وقد نجح الشاعر فى تصوير احساسه بمأساة مايو ، كما استطاع أن يعبر عن نفسية الشعب ... عندما بذل كل الجهد ليصل الى نتيجة مع العدو ، وقد سدت فى وجهه جميع السبل .

ولكن الشاعر قد ترك اهم شيء في الموضوع . فقد كان من حقه أن يشيد بصمود الشعب في هذه النكبة ، ويحثه على العمل والنضـــال ، ويرسم له الطريق بوضوح أكثر ، لابكلمة أو كلمتين • وهذه حقيقة تكاد لا تخلو من شعر شعرائنا ... خاصة الشيوخ منهم فكثيرا مايعمدون الى التقية ، والى الرمز والتلويح ... بدل المجاهرة والتصريح ، وقد تعذرهم في وقت من الأوقات • اما ، والشعب قد برهن على وعي حقيقي ويقظة شاملة ، فكان من حقهم أن يرشدوه ، ويبصروه ، ويهزوه ... ان دعا الامر الى الهز والدفع . والا فما قيمة الشاعر والشعر اذا لم يكن لسانا صادقا يعبر عن آلام شعبه . ويرشده الى الطـريق الصحيح .. طريق الحرية والتحرر .

بقيت قصيدة الشاعر « احمد معاش الباتني » . وقد قالها وهو يعالج بفرنسا .. قالها في « ذكرى ٨ مايو » وهذا هو عنوانها •

والقصيدة في الواقع موازنة أو مقابلة بين «جبال الالب» و « جبال الأطلس» وقد تحدث فيها عن سكان كل من الالب والاطلس • فقد جاء الاولون لاستعمار افريقية ، وكيف وقف ابناء الاطلس الاحرار يدافعون عن كرامتهم وعزتهم ؟ !

يقول في وصف جبال الالب :

متالهات في الجمـــال العـاري	**يعنو لهـا متاله الازهــــــار**
شـمخت بانف صاعرات خدها	**متبرجات بهجـة النظـــار**
شقت على السحب الستائر واعتلت	**تزهو بهـــام رصعت بنضـار**

ولكن هــذا الجمال الساحر ، وهــذه المناظر الخلابة ، لم تؤثر في سكان الالب ، ولا رفعت من مشـاعرهم واحاسيسهم ، بل دفعتهم الى افريقيا ينشبون فيها أظافرهم ، فرسوا على شطآنها ورمالها مثل الافاعي في رحاب الدار .

مدت الى افريقيــا اظفـارها	**ياويل افريقيـــا من الاظفـــار**
ورمت على شطآنها ورمالهـــا	**مثل الافـــاعي في رحاب الدار**

ثم يتحـدث الشـاعر عن ابنـاء الاطلس ، وعن موقفهم من هؤلاء الاغراب ، فالأطلس لم يحن هامته ، وان كان الزمان قد أوهن من عظامه لقد رفع عقيرته يصيح في ابنائه يحذرهم من هذا العدو الغاصب الذي ان تمكن من ارضهم فسيكون الجميع طعمة لهؤلاء الاغيار .

والاطلس لم يتعود ان يخضع فهو رأس افريقية ، وكيف للرءوس أن تنحني ؟! وللهامات أن تقهر ؟ !

لكن اصلع في الشـمال مجـنـبا	**أودى الزمان بريشـه المعطـار**
رفع العقـيرة وانبرت أصـداؤه	**ملء الاثير تصـــيح في (التاتار)**
ويلي وويلـكم اذا دام الصــبا	**فانا وانتم طعمـة الاغيـــار**
انا رأس افريقيـــا ورمز شمالها	**ما للرءوس الشـــم من قهـار**

ويستمر الشاعر في وصف الاطلس ، ثم في وصف جحافل العدو ..
الذى غزا الأطلس ، وصب عليه جام غضبه ورماه بكل داهية :

فالنار تهدر والمنايا حولها ... تاتى على الفولاذ والاحجار
والارض ترجف بالجحافل تحتها ... والساح نعصف بالردى والنار

والواقع : أن هذه القصيدة من روائع الشاعر ، وهى تبلغ حوالى ثمانين بيتا ، ولولا خوف الاطالة لنقلتها كلها .. انها ثورة بركان ، يرمى بالحمم ليوقظ النيام ، ويستفز المتكاسلين ، ويحث المتخلفين عن الركب الصاعد . وهى تنبىء عن طاقة شاعرية هائلة لدى الشاعر ، كما تظهر بجلاء : ان الشاعر قد حاول أن يبتعد عن التعابير الكلاسية التى مجتها الأذان ، وقد أعان على ذلك التعابير الموحيــة .. التى تلمح ولا تشرح ، وترمز ولا تصرح .. وهذه الطاقات التعبيرية الموحيه ، هى التى تجعل لشعر الباتنى هذه النكهة ، بل هذه النغمة .. التى تجعلك لاتمل ترديده ابدا . وسنتحدث عن هذا فى مكان آخر عندما نتعرض لخصائص شعر هذه المرحلة .

وخلاصة القول : أن مأساة ٨ من مايو أجدر بأن يقال فيها أكثر من قصيدة لشاعر ، وان يكتب عنها الادباء ، ويقول عنها الشعراء ، ولايفيها حقها لانها هى الشرارة الاولى التى نبهت الاذهان الى الحقيقة السافرة التى خفيت عنا زمنا ما . وعسى ان يتحقق هذا الامل ، فنرى قصائد اخرى ، بل روائع اخرى ، تسجل أحداث هذه المأساة التى كان لها الفضل فى يقظة الشعب وتوجيهه ... الوجهة الحقيقية ... نحو الكفاح ، من اجل حريته ، واسترداد كرامته السليبة .

(٢) مع الشعب

الحقيقة التى لاينبغى أن تغيب عن الاذهان ، والتى يجب أن ننظر على ضوئها للشعر الجزائرى ، هى أن الشعر كان دائما وأبدا يقف الى جانب الشعب يواسيه فى كل ملمة تلم به ، أو رزء يصاب به ، وما أكثر ما اصاب الجزائر من ويلات على يد أعدائه ومستعمريه ، وما أكثر مانكبته ... حتى الطبيعة نفسها ... وما اقسى الطبيعة عندما تثور وتصب غضبها على الناس .. وقد غضبت الطبيعة على مدينة (الاصنام) فدمرتها بزلزالها الرهيب سنة ١٩٥٤ ، كما غضبت قبلها على (خراطة) فكادت تبيد ساكنيها عن آخرهم . ووقف الشعر ليسجل هذين الحدثين الرهيبين .. وقف مع الشعب يواسيه ويشد من أزره .

فهذا هو الشاعر «محمد العيد» فى قصيدته الرائعة «زلزال الأصنام» يصرخ من أعمق أعماقه ، متألما ، ملتاعا .. من هذه النكبة التى دمرت مدينة بأجمعها . بل امست الجزائر من أقصاها الى أقصاها . واصبحت تعيش فى حداد ورهبة . مثل أم فجعت فى احدى بناتها العزيزات .. وهو يتاسف ويتوجع على الاصنام التى رجت دورها .. وتهدمت ، وداهمها الزلزال ليلا وهى « تحلم » فى نومها الهادىء المطمئن :

ويح الجـــزائر ما دهاها مالهـــا — تدعو دراكا .. تستغيث رجالها
ويح الجزائر اصبحت مكروبة — ولهى تئن فمن يكون ثمالهـا
مفجــوعة ثكلت فتــــاة برة — حسناء شوهت المنون جمـالهـا
أسـفى على الاصـنام رجت دورها — تحت الظــلام وزلزلت زلزالهـا

وبعد : هذه الصرخة المتألمة من الشاعر تأخذ في وصف هذا الزلزال فيتعجب من هذه الرجة الغريبة التى لم يشاهد الجيل مثيلا لها •

كيف ؟ لقد دوت كالرعد القاصف ، وهوت على السكان فأخرجتهم ، بل طحنتهم وأودت بهم ، فأزهقت الارواح ، ومزقت الاوصال ، ولم تقتصر في تدميرها على العباد ، بل انهـا قد عصت حتى على كل من وما اعترض طريقها . فلم تسلم لا الكرمة ولا الحديقة ، ولا من استغل غلالها ، وقد قوضت المقاصر التى زينت بالأسرة التي طالما آوت عرائس خودا لا تحد دلالها • فمضت على آمالهن •• وأحلامهن، وأصبحن تائهات •• مشردات، وكم من أم عطوف صاد الحمام وتخطف وحيدها •• كالنسر الذى هوى على حمامة فاغتالها :

عجـــبا لهـــا من رجة أرضـيـة — ما شاهد الجيـل الحديث مثالهـا
دوت دوى الرعـــد ثم تدكدكت — بالآهلـين وأخـــرجت اثقالهـا
اودت بأعـلاق التـلال وازهقـت — مهج العبـــاد ومزقت أوصـالهـا
كم كرمـة آلوت بهـــا وحـديقة — عصفت بهـا ومن اسـتغل غلالها
وسراية قـــد زينـــت بأسرة — تؤوى عـرائس لا تحـد دلالهـا
فسقت بهـا فتقوضت وتعـوضت — من بينهـا شـؤما يقبـح فالهـا
امســـت مشردة تهيم •• فقيـرة — تبـكى سعادتها وتنـدب مالهـا
كم مرضع صـاد الحمـام وحيدها — كالنسر صـاد حمـامة فاغتالهـا

والشاعر قد حار في سبب هذا الزلزال •• كما حار غيره ، فهل السبب هو تأثير التجـارب الذرية ؟؟ أم صواعق جـوية ؟؟ أم هزة تربة نارية ؟؟

لم نكتشـف ســببا له متيقنـا — الا افتراضـات تحـوك خيالهـا

وانما الشيء المتحقق ان هـذه البـلدة قد بقيت حطاما فوق حطام ، وركاما على ركام ، فلا ترى •• الا الديار وقـد تكدس بعضهـا فوق بعض والجبال قد هوت مطأطئة الرءوس فحطمت صخورها ورمالها . وكأنها سفن في بحر هائج مضطربة تميل يمينا وشمالا . ولربما ترى دارا قد هزتها هذه الرجة من أساسها فأدارتها مثل الرحى تماما . وانك لتشاهد أعاصير الرياح .. وقد شنت حربها على الاكباد .. فسددت اليها نبالها . وأكثر من هذا : تشاهد الكواكب يلفها السواد القاتم مثل هؤلاء الثكالى •• وقد استشعرت اسمالها • وترى أيضا الأخـاديد •• وقد انفتحت شقوقها ، رهيبة ، عميقة ، موغلة في الثرى ايغالا :

فترى الديار عـلى الديار اكبهـــا — وترى الجبـال على الجبـال امالهـا
خرت مطاطئة الرءوس فتبددت — حول السفوح صخورها ورمالهـا
فكانهـــا ســفن ببحــر هـائج — صخب تميـل يمينهـا وشمالهـا
ولـرب دار هزهـــا من اسـهـا — وادارها مثـــل الرحى واجالهـا

وترى اعاصير الرياح اثارها	حربا « تسدد » للكبود نبالها
وترى الكواكب فى سواد قاتم	مثل الثكالى استشعرت اسمالها
وترى أخاديد الشقوق رهيبة	فى العمق توغل فى الثرى ايغالها

ويستمر الشاعر في وصف هذا الزلزال العنيف ٠٠ وصفا لم نقرأ مثله لشاعر عربى فى مثل هذا الموضوع ، حتى الذين تحدثوا عن « هيروشيما » ٠ ولقد حشد لها من الصور البيانية ، والاخيلة ، والتعابير الموحية ٠٠٠ التى تجعلك تحس احساسا قويا برهبة هذا الزلزال وبعنفه٠ وانظر الى وصف الكواكب التى لفها السواد مثل هؤلاء الثكالى اللائى استشعرت أسمالها ، ان هذا التعبير « استشعرت » يوحى بالحساسية المفرطة ، والشعور العميق بالكارثة ٠ ويختم الشاعر قصيدته بلوم مواطنيه ٠٠ الذين يلهون ، ويمرحون ، ويجرون خلف اللذائذ ، ساهين عن واجبهم تجاه وطنهم الذى يرجو أن يقاتل فى سبيل حقه٠ وهم يعرقلون نضاله ، وكفاحه ٠ فكان جزاؤهم هذا الزلزال :

وبنو الجزائر فى سفاسف عيشهم	خلف اللذائذ ينشدون وصالها
ترجو الجزائر أن تناضل حرة	عن حقها ، فيعرقلون نضالها

فهذه القصيدة تعتبر من غرر الشعر العربى فى وصف الكوارث والمحن ، وهى دليل على أن الشاعر الجزائرى لم يكن بعيدا عن شعبه ، بل كان معه ٠٠ والى جانبه فى كل الاحوال :

وقد هزت الشاعر « مفدى زكريا » هذه الرجة ، وحرك نفسه هذا الزلزال ، فقال قصيدة على غرار قصيدة « محمد العيد » بعنوان « الآن ربك اوحى لها » ويبدؤها بسبب هذا الزلزال ٠٠ فيعزوه الى الاثم والفسق الذى عم هذه الناحية ، هذا الاثم الذى لم تتحمله الارض ، فأخرجت ما عندها من أثقال ، لترمى به الآثمين ٠ وقد سخر البعض من هذا ، فذهب يسال الارض عن هذه الغضبة ، ولكن كان الاجدر ٠٠٠ ألا تسأل الارض عن هذه الرجة التى رمت الناس فى جحيم مهول ٠٠ بل كان الاجدر أن يسألوا « ابليس » الذى أوحى لهم بالشر والاثم ٠ فردت الارض ترمى باللهيب المحرق ، والعذاب الماحق ، بوحى من الله تعالى :

هو الاثم زلزل زلزالها	فزلزلت الارض زلزالها
وحملها الناس أثقالها	فاخرجت الارض أثقالها
وقال ابن آدم فى حمقه	يسألها ساخرا : مالها ؟
فلا تسألوا الارض عن رجة	تنادى الجحيم وأهوالها
الا أن ابليس أوحى لكم	الا أن ربك أوحى لها

هذا هو مطلع القصيدة ، وهو ٠٠٠ فى الواقع ٠٠٠٠ مطلع ليس فيه ما يلفت النظر مثل ما رأينا فى قصيدة « محمد العيد » التى كانت بدايته التياعا وأنينا ، وحرقة وألما وكان تعبيرا صادقا عن الفاجعة ٠٠ بأتم معنى للكلمة ، أما مطلع « مفدى زكريا » فقد استوحاه من آيات قرآنية من سورة « الزلزال » ٠ فليس فيه جديد فى الوصف ولا فى الاستعارات والأخيلة والمعانى التى يوجبها السياق فى مثل هذا الموقف ٠ كما بدا سبب الكارثة

الذى عزاه الى الاثم والفجور • وهذه الفكرة ـ في الحق ـ بسيطة ، اذ هى من التعليلات الساذجة البسيطة ، وكان من حقه أن يتعمق أكثر ، فيبحث عن السبب الحقيقى ـ عن قوى الطبيعة وظواهرها • ثم يوجه عناية شعبه الى استكشاف غوامض الطبيعة ، ومن ثمة يدعو الى الاخذ بأسباب العلم الصحيح ، والرقى الفكرى الحقيقى • ولا ضير بعد ذلك في أن يضيف سببا آخر : كالاثم «مثلا» ••• الى تعليلاته ، حتى يجمع بين العقل والقلب ، وبين الواقع والخيال •

وقد أعجبنى منه تلك الاستعطافات للطبيعة ، وذلك النداء الحار المخلص : بطلب الرفق ، والعطف على هؤلاء المنكوبين ، هؤلاء الذين جردتهم الطبيعة من كل شيء • فهم : حفاة عراة ، جياع ، يصارعون الموت • فقد فقدوا كل شيء ••• سوى محاجر العيون التى تندب وتبكى اطلال منازلهم التى شردوا منها ، فهم أشبه بالهياكل الهزيلة ، وحتى السماء لم ترحمهم•• فأخذت تهطل اليوم عليهم مدرارا :

ففى الحى قوم عراة حفاة ... جياع •• تصارع آجالها
هم فقدوا كل شيء سوى ... محاجر تندب اطلالها
هياكل حتى السماء أرسلت ... تطاردها اليوم هطالها

فهذا المنظر الذى يعرك الصخر ، لم يحرك بعض النفوس للبذل والعطاء ولمواساة المكروبين ، فحز فى نفس الشاعر أن يشاهد أناسا •• لم يحركوا ساكنا ، ولا بادروا باعانة مواطنيهم ، فصب عليهم سوط غضبه ، وجحيم ثورته العارمة ، واستنزل عليهم لعنات الرب القوى •

أما أولئك الذين شاركوا شعبهم ••• آلامه ، ووقفوا يواسون الجراح ، ويبذلون ما عندهم ••• فهم : أمل الجزائر ، ان هؤلاء ••• قد استحقوا ثناءه • كما تضرع الى الله أن يعضد جهودهم ويباركها ، لانهم عاهدوا الجزائر على الموت من أجلها ، والدفاع عنها ••• الى آخر رمق :

وقوم اذا جئتهم امسكوا ... وشدوا على الدار أقفالها
كرام مساريع فى موبقات ... جبين المروءة يندى لها
فيالمنات احصى انفسا ... عن الشعب تمسك أموالها

أما الذين ضمدوا الجراح ، وأعانوا على النائبات ، فلهم الصلوات الطيبات :

ويا صلوات اعضدى معشرا ... غدوا للجزائر آمالها
وقالوا : سنبقى على عهدها ... نموت ونحيا لها

واذا كان « مفدى زكريا » قاسيا ثائرا ساخطا على الذين لم يقفوا مع الشعب • • فالشاعر « العيد » كان هادئا عطوفا ، دعا لهم بالهداية والرفق بهؤلاء الضالين الهالكين • ولعل هذا الاختلاف يرجع الى طبيعة كل من الشاعرين والى فارق السن ، فالشاعر « العيد » شاعر شيخ ، ينظر نظرة الحكماء ، ومفدى زكريا ، شاب ثائر ، ينظر بعقلية الثوار الشبان • وان كنت أفضل قصيدة « العيد » على قصيدة « زكريا » • للاسباب المتقدمة ، جملة •• لا تفصيلا •

ويأتي الشاعر « الربيع بوشامة » ليسجل زلزالا آخر قبل الاصنام، زلزال وقع ببلدة « خراطه » هذه البلدة التي كانت من جملة البلدان التي دمرت في مأساة ثامن مايو ١٩٤٥ . ومطلع هذه القصيدة :

قف بالحمى.. وانظر مدى الزلزال	وتحسس البركان في اقبال
والحظ « هوادي » فيحه وحمية	ودوية المتزايد الصوال
قد شق فوهة بعيدا غورها	يرمي بادخنة ... نذير خبال

وهذا المطلع قوي ، يجعلنا نحس .. حقا .. بفداحة الامر ، وعنف الزلزال ، بما حشد له من صور وتعابير مدوية فخمة تهيء القارىء لان ينظر... في شوق... الى باقي القصيدة، فالتعبيرات :« قف ـ تحسس ـ والحظ ، فيحة ـ حمية ـ دوية ـ الصوال » . . . الى آخر هذه الحشود والصور التي تهز النفس هزا . والتي تجعلنا نترقب باقي القصة في لهفة وتطلع ، ولعل مطلع الشاعر هنا أقوى من مطلعي الشاعرين العيد وزكريا . وقد يتساوى مع « العيد » في المطلع .

ثم يأخذ الشاعر في وصف ما جر الزلزال على ... خراطة ... وسكانها ، الذين استبدلوا سكنى الخيام وحياة الترحال ، بعد الديار والاستقرار . وابعض يبكي هؤلاء النازحين وهو يترقب في خوف .. وفي كل حين ـ بطشة الزلزال . والبعض الآخر قد خربت ديارهم .. ولم يبق منها سوى أطلال، بل أنها قد تهدمت على ساكنيها الذين تكدسوا في كتل متراصة تحت الثرى المنهال :

« خراطة » باتت مسارح رجة	كبرى توقع أروع الأهوال
وتحس في أطوائها وسهولها	بمهزة وتمايد فعال
قد خرج منها اهلها واستبدلوا	سكنى الخيام وعيشة الترحال
فالبعض يبكي النازحين ويرتجي	في كل حين بطشة الزلزال
والبعض منها قوضت أركانها	وتخربت لم يبق من أطلال
وهوت على سكانها في وهدة	وتعانقوا تحت الثرى المنهال

ثم يأخذ الشاعر يتألم ويتأسف لما ألم بهذه البلدة المسكينة ، التي هجمت عليها الاحداث من كل جانب ، وتوالت عليها المصائب داركا. فهي بالامس : شهيدة الحرية ، وطريدة الظلم والاستعمار . وهي اليوم فريسة البركان والزلزال » لقد جفاها الكل فسقيت الوانا وأنواعا من الشقاء والاذلال :

اسفا عليك ـ بليدة ـ مسكينة	وصدتك احداث بكل مجال
بالامس أنت طريدة معروضة	للظلم .. أفناك ، بسيف نكال
واليوم أنت فريسة مقهورة	في مخلب البركان والزلزال
كل جفاك وما دريت بعلة	وسقاك الوانا من الاذلال

كذلك : الطبيعة نفسها ... لم ترحمها ، ولم تشفق عليها . فقد طعنتها .. فنكات جرحها الذي لم يندمل بعد . طعنتها بوحشية تريد القضاء عليها ، على مابقي من ضربة الثامن من مايو ، لم يؤثر على هذهالطبيعة

شيء لا الدموع ولا الدماء ، ولا حتى عطفت على الاطفال الصغار الذين لا ذنب لهم :

حتى الطبيعة سددت طعناتها ... لجراحك المشبوبة السيال
وتهجمت بقساوة تبغي القضا ... ء على بقايا النفس والأموال
لم يثنها عنك الدموع ولا الدما ... كلا .. ولا عطف على الاطفال

ويختم القصيدة « فى النهاية » يستعطف المحسنين ... ليواسوا اهل هذه البلدة المنكوبة . والقصيدة فى مجموعها : جيدة ، فهى تصوير رائع للمأساة ، تجعلك تشعر بعطف على « خراطة » ولو لم تعرفها . وهذا يرجع الى أن الشاعر صاغها : فى قالب جميل ، وعبر عنها : بتعابير موحية مؤثرة ، بيد أن هناك تعابير مضطربة ، قلقة ، تفسد من جمالها ، وتقلل من وقعها .. وتأثيرها . ولكنها هنات قليلة .. بالقياس الى ما فيها من روعة السبك ، وعاطفة انسانية جياشة .

هذه بعض النماذج من الشعر الجزائرى الذى عبر فيه عن شعوره تجاه شعبه ، فشارك : آلامه ، وأحزانه ، وأفراحه ، وأتراحه . ولا أقول جديدا اذا ما أعلنت بأن الشعر فى الجزائر .. كان للشعب ، يتتبع خطواته ، ويسجل أحداثه ، فيحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ..

وسيتضح هذا أكثر فى دراستنا المقبلة لهذا الشعر .

فى موكب العروبة

من الخطأ الفاضح : الاعتقاد بأن الشعب الجزائرى كان بعيدا عن ركب العروبة ... حتى قامت الثورة المباركة ، التى أرجعته الى حظيرتها ، بعد أن كاد يغرق ... الى أذقانه ... فى بحر الاندماج والذوبان فى كيان فرنسا . وأكثر من هذا خطأ الظن : بأن الشعر كان بعيدا عن موكب العروبة أيضا .

والحقيقة التى لا يشك فيها أحد ، أن الشعب الجزائرى يحس ... احساسا عميقا ... بعروبته وبقوميته . والدليل على هذا : كفاحه الطويل من أجل هذه القومية ، ومن أجل لغتها ، وتاريخها ، وآدابها . ولكن كفاحه كان صامتا ... لم يسمع به أحد . لان الشعب كان معزولا عن العالم فى معظم الاحيان .

ومن هنا كان احساس البعض بأن الجزائر كانت بعيدة عن العروبة وعن ركبها الصاعد . ولم تبرز كشعب عربى الا فى السنوات الاخيرة ، خاصة : بعد الثورة . وهذا ان دل على شيء ... فانما يدل على جهل البعض بالقومية نفسها وبطبيعتها . فانت تستطيع أن تجرد الانسان من أى شيء الا من قوميته وجنسيته وذاته وهذا ما جعل فرنسا تخفق ... الاخفاق الذريع ... فى محاولاتها المستمرة ، التى رمت بها ... الى تجريد الشعب الجزائرى من عروبته ، فحرمت اللغة العربية ، وهى اللحمة التى تربط الشعب بعروبته وتاريخه . وحاولت مسخ هذا التاريخ ... حتى

ينسى الشعب ماضيه ، وماضى آبائه ··· وأجداده العرب ، ولكنها لم تصل الى نتيجة ، سوى أنها جعلت الشعب يؤمن « أكثر من ذى قبل » بعروبته وقوميته ·

وقد رأينا ـ فيما مضى من هذه الدراسة ـ كيف أن الشعب وقف فى عناد وقوة يدافع عن عروبته ، ويحارب كل الافكار الهدامة التى أرادت أن تدمجه فى قومية أخرى ، وفى جنسية أخرى . وماهذه الثورات الدائمة والانتفاضات المتكررة الا علامة من علامات ايمان الشعب بعروبته وقوميته· فلم يفهم الشعب الجزائرى القومية على أنها فلسفة لها أصولها ودعائمها ، انما أحس بها فى كيانه ·· فى دمائه ·· أحس بها فى تاريخه الذى ارتبط بتاريخ العرب منذ الفتح الاول ، أحس بها من نبرات هذه اللغة العزيزة التى يعبر بها عن انفعالاته وعواطفه ومشاعره كانسان · أحس بالعروبة لانه عربى وكفى ·

لم يحاول أن يفلسف القومية ، أو يتعمقها ، أو يبحثها ، أو يكتب البحوث عنها ، لانه يعتبرها شيئا مفروغا منه ··· لا يختلف فيه اثنان· ففهمه للقومية العربية : فهم ساذج بسيط ، ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ فهم سليم صادق خالص ، لا يعتريه شك أو ذبذبة ·

عبر الشعب الجزائرى عن احساسه بقوميته فى شتى المناسبات ، عبر على لسان شعرائه ·· يشارك العروبة فى أفراحها وأتراحها ، يحزن لحزنها ، ويسر لسرورها ... دون أن يرقب جزاء أو شكورا على ذلك . وهذا هو الفهم الصحيح للقومية العربية الصحيحة ·

وقد أخطأ البعض ـ مثل الأديب سعد الله ـ فى ظنه بأن الشعر فى الجزائر لم يتعرض للقضايا العامة الا تحت ظروف ووحى من الداخل، وقد نشر بحث له بمجلة الآداب لشهر ديسمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « تصميم للشعر الجزائرى الحديث » جاء فيه ما نصه :

ومن ذلك انه شعر جزائرى ، قليل التعرض للقضايا العامة ·ولذلك قلنا : انه قد صور حياة الجزائر · · · تصويرا واقعيا صادقا · بحيث تحدث عن جهلها وبؤسها ، وتأخرها · وتحدث عن جمالها ، ومنزلتها ، وامتيازها · وتحدث عن نهضتها ، وحركاتها ، ورجالها ·

فاذا ما تناول قضية عامة ، فان ذلك بوحى من داخل الجزائر ، مثل : استقلال الشعوب ، والحرب ، والنفس ، والموت ، وعلاقة الانسان بالله ·

والأديب سعد الله فى هذا الرأى ـ ومثله من يؤيده ـ مخطىء الخطأ كله · فالشعر فى الجزائر ··· كما اعتنى بالقضايا الداخلية ، اعتنى أيضا بالقضايا الخارجية ··· وخاصة القومية منها ، لانه يعتبرها قضية واحدة · وسنرى فى بعض القصائد أن هناك تداخلا كبيرا بين الجزائر والعروبة · أى أن الشاعر لا يفصل بين هذه وتلك· ولا يفرق بين الجزائر والعروبة · ثم ما هو مدى هذا الوحى الذى كان يدفع الشعر ليتناول القضايا العامة ؟ فهل هو التحدث عن استقلال الشعوب العربية ـ مثلا ـ

أو عن آلامها وأحزانها وكفاحها ؟ هل هذا يعد حديثا عابرا لا صلة له باحساس الشعب العربى فى الجزائر ؟ وما الشعر الا تعبير عن خلجات الشعب ، وأحاسيسه •• تجاه نفسه ، وتجاه الانسان الذى تربطه به رابطة الدم ، أو رابطة الانسانية •

وقد تحدث الشعر فى الجزائر ، عن « هيروشيما » وعن شعوب افريقية وآسيوية ، ولولا خوف الاطالة : لنملت نماذج لذلك •

وهذه قضايا العروبة تشهد بما قدمنا • ونبدأ بقضية « فلسطين » أم القضايا ، والمشكلة الاولى بالنسبة للشعب العربى ••• منذ الاعتداء الصهيونى الاستعمارى على ارضها الطاهرة • ولن أتحدث عن موقف الشعب نحو هذه القضية ، فذلك مما لا يجهله أحد • وانما أنقل احساس هذا الشعب وعواطفه تجاه اخوانه عرب فلسطين على لسان شعرائه •

فالشاعر « محمد العيد » أحس بالظلم والجرم الفادح ، عندما وقف الاستعمار يؤيد الصهيونية فى عام ١٩٤٨ ليقتطع لها جزءا من جسم الامة العربية ، ويغرسها « كشوكة » فى حلق الشعب العربى فأحل بالقانون جرما فادحا ، وأذل دين الله للدينار : —

ان الذى زعم العدالة شرعة — اذى الأئمة فى رضى الاحبار
ولا هى العمومة فى وشائج نسلها — وسطا على الاجوار بالأجوار
واحل بالقانون جرما فادحا — وأذل دين الله للدينار

ولكن هذا الغاصب المعتدى ، الذى جار على حقوق العرب ، سيأتيه يوم • يوم يثور فيه العربى لكرامته ••• فينتقم لها أشد انتقام • لان عدوه الغاصب أعرض عن السلام . فلا بد له من حرب تقضى عليه وعلى عدوانه . ولا يظن أن صبحه طالع ، فالبدر قد يخدع السارى وسيرى : ان أمانيه كاذبة منهارة ، لانها بنيت على أساس منهار ... لانها بنيت على الظلم ، وما بنى على الظلم ... لا يدوم ولا يبقى ، فالقدس « يادعى » لابن القدس ، لا لمتشرد « مثلك » صهيونى مهاجر أفاق غادر :

قل لابن صهيون اغتررت فلاتجر — ان ابن يعرب ناهض للثار
اعرضت عن خطط السلام موليا — فوقعت منها فى خطوط النار
لا تحسبن بأن صبحك طالع — فالبدر ويحك خادع للسارى
ستري أمانيك التى شيدتها — منهارة مع ركنك المنهار
القدس لابن القدس لا لمشرد — متصهين ومهاجر غدار

وهذه صرخات أخرى لشعراء شبان ، كان احساسهم بمأساة فلسطين ... مثل احساسهم بذل شعبهم ووطنهم . يقول الشاعر « بوشامة » فى قصيدة بعنوان « صوت الجهاد » يدعو فيها العرب الى الجهاد والنضال من أجل استرداد فلسطين . أرض الهدى ، هذه الارض الطاهرة التى نهبها العدو ، فهى تنادى الشباب العربى الى الجهاد والكفاح :

تقدم بحزم قوى الفؤاد لتصون الدماء وفك البلاد
فلسطين أرض ... تنادى الجهاد الجهاد الجهاد
فتى العرب هيا قلب النداء ولاق المنايا بساح الفداء
فلسطين فى النار نهب العدا تنادى الجهاد الجهاد الجهاد

وله قصيدة اخرى يحث فيها العرب على الوقوف الى جانب فلسطين والموت من اجلها والا فليترقبوا الشقاء والعار الابدى تحت حكم اليهود ، الذين لا يعرفون سوى اقتراف الجرائم . ويستنفر الجزائرى الى الكفاح من اجل فلسطين ، ويختمها بالترحم على أرواح الشهداء ، وهى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول الشاعر : ـ

أيها العرب أمة المجد والبأ ساء ماذا ترجون غير التفانى
انه الموت فى الكرامة والعـ ـز أو العيش فى الشقا والهوان
تحت حكم اليهود اخبث من عا ث فسادا فى عالم الانسان
والد الخصوم ابلوا بلاء منكرا فى التخريب للعمران
اين ذاك الجزائرى المجلى فى ميادين كل حرب عوان
كيف ترضون عيش أمن وخير وفلسطين فى الجحيم تعانى
هل نسيتم عهد الاخوة والقر بى وفضل التحرير والاحسان
رحم الله كل حر شهيد فى سبيل الاسلام والاوطان

وكما اسلفت فى هذا الحديث : ان هناك قصائد تتداخل فيها قضايا العروبة . ليتحدث الشاعر فيها عن الجزائر وعن فلسطين وعن العروبة لا يفرق بينها أبدا .

فالشاعر « عبد الكريم العقون » فى قصيدته (بنى العرب هذا يومكم) يبدأ بالحديث عن الجزائر التى تتجمع فوقها السحب . ولكنها سحب عابرة ، وسيأتى يوم تضحك فيه ، وتحظى بأملها العذب ، فتخلع عنها اغلال الذل والمهانة ، وتحيا عزيزة مكرمة ، وتجاهد اعداءها جهادا مريرا اليس الشعب الجزائرى من نسل يعرب ، لقد تحركت نفوس العرب فثارت دماء العروبة فيها . وستشعلها ثورة عربية ترمى بأعدائها فى الجحيم . وسيصلى شياطين الطغاة شواظا من نيران . هذه الثورة العربية التى ستستمر حتى تطهر أرضهم من الدخلاء :

سينقشع الغيم المخيم عن شعبى فيغدو ضحوكا كالمشرق الافق كالغرب
ويحظى بآمال عذاب جميلة وكم من جنى عذب لدى الامل العذب
ويخلع اغلالا ثقالا يجرها ويجلو ظلام الظلم بالزأر والوثب
يؤمل ان يحيا عزيزا مظفرا سريع الخطى للمكرمات وللذب
يجاهد أعداء الحقيقة جهده ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
دماء بنى العرب استفاقت فايقظت نفوسا فثارت تطير مع السرب
لقد أوقدوها ثورة عربية بجيش همام كالصواعق منصب
شديد المراس فى النوازل مدرب جرىء الى واسع الطعن والضرب
سيصلى شياطين الطغاة بجمعهم شواظا من النيران كالوابل السكب

ثم يوجه حديثه الى دولة اسرائيل المزعومة : —

لقد جهلت(صهيون) واشتط حلمها   بدولة (اسرائيل) فيموطن العرب

ثم يتجه الىالعرب الذين فرضت عليهم اسرائيل فرضا فيدعوهم الى ازالتها من الوجود :

الا فاجعـلوها طعمة لأجيجهـا   فليسوا باهل للثبات لدى الخطب

ويوصي فى النهاية الشعب الجزائرى بان يتجه الى الشرق العربى، ويلتفت مع اشقائه حول جامعة الدول العربية ، يحثه على الاعتصـام بمبادئها ، ويوصيه بأن يكون جنديا من جنودها ، فهى رمز الوحدة ، وحدة العروبة .. التي ترجع الى سلامة واحدة ، هى سلامة يعرب ، وعبد مناف ، وكعب : —

ويشعب ول الشرق وجهك واعتبر   بجـامعة العرب الموحدة الركب
فثق بمبادئها وكن من جنـودها   وخض معها الاحداث جنبا الىجنب
وما نحن الا من سلالة يعـرب   وعبد مناف جـدنا وبنـو كعب

ولكن الشاعر « أبو شامة » يوجه حديثه الى العرب جميعا ، يذكرهم بماضيهم ، ماضى أمية وتغلب ، ويدعوهم الى أن يثوروا على الظلم،مثل الجدود الذين رضخ لهم الغرب فى فترة من الفترات ، واعترف بزعامتهم وصوتهم . هؤلاء الجدود الذين شادوا وبنوا صروحا شامخات ،وأتوا بالعجب العجاب ، وكانوا هداة ومرشدين للضالين الحيارى :

أراكم نسيتم عهـودا مضـت   عهـود (امية) أو (تغلب)
فثـوروا على الظلم مثل جدود   عنا لهم الغـرب فى الاحقب
فـكم حطموا معقـلا شـامخـا   وشـادوا من السؤدد الأعجب
وكم ارشدوا حائرا تائهـا   يتفز من الشـك أو سبسب

ألم يكف الغرب مايشاهدونه من تجمع الغرب واتحاده ضـدهم • ألم تكن فلسطين درسا بليغا •• يذكرنا ويعظنا • ولكن : اذا كانالغرب قد اغتر بقوته .. فستشرق شمس المشرق . وسيرجع عهد الاخاء ، ويجتمع شمل العروبة فى وحـدة قوية شاملة . فحسب الذى يتجاهل هذا ... حسـبه هذه اللغة التى هى اسرة قوية ، ولحمة متينة . وكذلك الدين القويم .. دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ارى الغرب قد جمعـوا شملهم   على الشرق والشرق مثل الصبى
فدرس فلسـطين درس بليغ   يـذكرنا الحلف فى مـوكب
رويـدك يا غرب لا تغتـرر   فشمس بنى الشرق لم تغـرب
وانا سـنرجع عهد الاخـاء   ويجمع شـمل بنى يعـرب
فحسبك بالضـاد من نسبة   اذا ما انتسـبنا ودين النبى

أليس هذا شعور العربى المخلص نحو القومية العربيـة الحقـة ؟ اليست هذه صرخات من عربى يتألم لما لحق العروبة من اضـطهاد على ايدى الغرب ، يستفزها للعمل من أجل الوحدة والاتحاد ، ومن أجـل الكرامة والعزة ؟ الم يعبر الشـعر فى الجزائر عن شـعور الشعب الجزائرى تجاه القومية أصدق تعبير ؟؟

واختم هذه الكلمة عن فلسطين بمقطوعة من قصيدة الشاعر « احمد سحنون » يحث فيها هو الآخر زعماء الشرق على ضم الصفوف ، ويدعو الشعراء الى أن يكونوا لسان شعوبهم .. فيوقظوها ، ويشجعوها . فالشعر ثورة ، ولكنها تحمل القلم .. لا السيف ، ويحث الجيش العربى المظفر على خوض المعركة حتى النصر ، وحتى يطرد أعداء فلسطين ، أعداء العروبة :

موطىء اقدام النبيين والرسـل — وارض نبى الوحى بوركت من نسل
فداك الفدا لا تقبلى قسمة العدى — وللموت سيرى لا تبيتى على الذل

الى ان يقول موجها خطابه للعرب جميعا :

ويا زعماء الشرق ضموا صفوفكم — ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمل
لقد جد جد العرب فاقتحموا الوغى — ولا تدفعوا جد الحوادث بالهزل
ويا شعراء الضاد حثوا شعوبكم — بشعر يداويها من الجبن والبخل
فما الشعر الا ثورة غير انهـا — (توصل بلا كف وتسعى بلا رجل)
ويا أيها الجيش الذى رجع ذكره — قلوب العدى باكر فلسطين كالوبل
سترجع منشـوراللواء مظفرا — ويرجع اعـداء (النبيين) بالنكل

أما أرض الكنانة فلها فى قلوب الجزائريين مكانة خاصة ، لقد كانوا ــ وما زالوا ــ يعقدون عليها الأمل فى الدفاع عن العروبة ، والحفاظ على كرامتها . وكان الشعب الجزائرى يرقب الاحداث التى تجرى فى هذه الأرض ... العزيزة على نفسه ، كان يرقبها بيقظة وانتباه شديدين فكان يتألم عندما تتعرض لاى خطر . ويفرح عندما تحقق انتصاراً ، وقد عبر عن هذا شعراؤها . ويطول الحديث ، لو اردنا أو نورد ما قيل فى هذا الموضوع ، ولكننى ساكتفى ببعض النماذج كمثال ليس غير .

عندما وقع الاعتداء على القنال ، اى عندما قامت مصر بشن هجومها على أعداء البلاد فى القنال عام ١٩٥٢ وأخذ الاستعمار الانجليزى يقتل ويدمر ويعتدى دون وازع من ضمير ، عندما وقع هذا أحس الشعب الجزائرى بأنه قد مس هو الآخر . وشعر بأن جزءاً من العروبة ، بل قلبها النابض .. قد أهين فتألم ، ونقل أله شعراؤه . فهذا محمد العبد عبر عن الم الشعب الجزائرى عندما اعتدى الانجليز على ارض العروبة . وأخذ يحث الشعب العربى فى مصر للزحف على الاعداء ، وأن يشنها حربا يثأر بها لكرامته ، ويحث مصر ان تجعل كتائبها وجيوشها من الجند لا من الورق ، وأن تسفح الدم لا المداد ، ولن تقف وحدها ، فالجزائر والمغرب العربى يهتف معها ويؤازرها ، وانه باق على عهد العروبة .. ولن يتحول عنها ابدا :

اغار على الكنانة شـد عاد — فقل يا مصر حى على الجهـاد
اعدى كل باسـك واستعدى — لرد الزاحفين بلا اتئـاد
امن شكر الصنيعة ان يجازوا — ببيض صفاحهم بيض الايادى
فشنيها عليهم حـرب ثـار — وشبيها لظى ذات اتقـاد
وخطيهـا كتائب غير كتب — وصحفا من دم لا من مداد
هتافات (الشمـال) اليك تعاو — صدى وعهوده لك كالعهـاد

كما شارك الشعب والشعر فى فرحة الوادى بيوم الجلاء ، يوم ان عقدت معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ فقد فرح الشعب الجزائرى بجلاء الجيوش الاجنبية عن أرض الكنانة ، وانجلى الظلم عن الوادي الخصيب .. مثلما ينجلى الليل البهيم يعقبه فجر مشرق حبيب .. بعد أن قضى سبعين سنة جاثما فى هذه الارض يمتص وينهب خيراتها . ولكن بعد أن عانى من اهلها الابطال زمانا . ارغموه فى النهاية على أن يخرج منها ذليلا حقيرا :ـ

انجلى الظلم عن (الوادى)الخصيب كانجلاء الليل عن فجر حبيب
فوق سبعين قضاها جاثما فى ربوع مسها منه اللهيب
فعثا فيها زمانا خاثرا ثم ولى جانحا للغروب

ويستمر الشاعر « عبد الكريم العقون » فى فرحته التى هى فرحة الشعب الجزائرى ، ويخاطب العرب فى مصر الذين تحرروا من القيد ، يستنجد بهم لوطنه « الجزائر المعذبة » التى لا يسعها الا ان تفرح مع مصر :

كاى من فؤاد هنا فى طرب راقص للنبأ العذوب
(فاذكرونا مثل ذكرانا لكم) ايها الابطال انا فى كروب
من دخيل لج فى طغيانه سد فى أوجهنا كل الدروب
نحن فى الخطب سواء هل لنا منكم عون على دفع الخطوب ؟

وقد عبر الشعب عن فرحة الشعب باستقلال السودان وتحررها من حكم الانجليز ، وقد نقل هذه الفرحة الشاعر الكبير « محمد العيد » فى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول « العيد » :

فوز سرت بحديثه الركبان فالشرق مغتبط به جذلان
والسمحة البيضاء يعلى بشرها ولو ازدرت بحقوقها الأديان
والنيل يجرى صاخبا ومصفقا طربا فنرقص حوله الشطآن
وبنو العروبة يهتفون لمركب فى النيل ابحر ركبه العربان
ما اسعد السودان باستقلاله فاليوم يرفع رأسه السودان

ويستمر الشاعر فى وصفه المبدع لفرحة الجزائر باستقلال السودان ، ويربط بين الحاضر والماضى مذكرا بعهد الآباء والجدود وامجاد العروبة الخالدة . فى اسلوب يتدفق قوة وسلاسة وحلاوة . ولكن بالرغم من شعوره بهذه الفرحة الغامرة ، لم ينس آلام شعبه وأحزانه وما يعانى من الاجنبى واستعماره الظالم ، ويتساءل عن اليوم الذى تتحرر فيه الجزائر وترى الحرية هى الأخرى .. وتعم الفرحة الشعب العربى جميعا :ـ

من مبلغ السودان عنا اننا شيع له بشعورنا خلان
نتبادل القبلات باستقلاله فرحا وان طافت بنا الاحزان
متسائلين عن الجزائر هل دنا تحريرها أم حظها الحرمان ؟
ومتى تقرر كالشعوب مصيرها فقد انتفى تقريره الايمان ؟
ومتى يكف عن الخضوع خصومها او يرعوى محتلها الغضبان ؟
ومتى تفوز بنسمة استقلالها لقد استقلت دونها الأوطان ؟

وكما تحدث الشعر عن الشرق العربي ، فقد تحدث كثيرا عن المغرب العربي .. تحدث عن أفراحه وأتراحه .. تحدث عن كفاحه وعن أحداثه ، من أبطاله وزعمائه .. تحدث عن « الزعيم عمر المختار » الشهير بليبيا ، وعن « محمد الخامس » وعن « المنصف باى » ، وعن غيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للمغرب العربي .. هذا المغرب .. الذى هو دار الجميع ، هذه الدار التى يباركها « محمد العيد » والتى كانت ـ وما تزال ـ ملاذ الجميع ، بالرغم من الفرقة التى زرعها أعداء المغرب العربي ، هذه الفرقة التى ستزول حتما بالعلاج الحاسم .. بالوحدة والاتحاد : ـ

بورك المغرب من دار لنا	بوأتنا من مغانيها كنانا
نحن فيها أسرة واحدة	فتنت الفرقة فى أعضادنا
اخوة دينا وجنسا ولسانا	ان منها أبدا كل ضنانا
عالجوها باتحاد جامع	ناجع المفعول يبقى الشنآنا
ضمن الله به العز لنا	ونفى الذلة عنا والهوانا

وبعد فهذه بعض النماذج التى نقلتها للمثال .. لا على سبيل الحصر .. على أن الشعر فى الجزائر كان لايفتأ يعبر عن احساسه نحو قوميته وعروبته ، ونحو اخوانه واشقائه العرب . ويكاد الشعر في الجزائر لم يترك قطرا من الأقطار العربية الا ويشاركه فى آلامه ، وفى أحلامه وأفراحه . ولا يسمح المقام بضرب الامثلة على ذلك .. فمن شاء الاطلاع فليرجع الى المصادر التى ذكرناها سابقا ، فسيجد فيها أكثر مما ذكرنا . سيجد أن احساس العربى فى الجزائر بقوميته .. صادق مخلص ، وانه لم يتأخر ـ لحظة واحدة ـ عن موكب العروبة .. بل انه يسير معها .. أن لم يكن فى المقدمة ، وسيبقى على العهد .. ما دامت دماء العروبة الحرة تجرى فى دمه ، وحتى يرث الله الارض ومن عليها .

بين احضان الطبيعة

الذى يلفت النظر حقا فى الشعر الجزائرى ، هو أنه قليل الحديث عن الطبيعة ، بالرغم من أن الجزائر .. تزخر بشتى المناظر الطبيعية الخلابة .. تزخر بشلالاتها الرائعة ، وبغاباتها التى تتناثر فيها المروج الخضراء الجميلة . وتتفجر فيها العيون المتدفقة الثرارة ، وترتفع فى سمائها الاشجار المختلفة من بلوط ، وسنديان ، وسرو ، الى الزيتون ، والنخيل ، وعرائس الكروم . أما الجبال الشاهقة : فحدث عنها ولا حرج ، ولا أبالغ اذا قلت أن هناك مناظر طبيعية لا توجد .. حتى .. فى أوربا التى اشتهرت بمناظرها البديعة . ويعرف هذا كل من زار الجزائر وتجول فى ربوعها شرقا وغربا . ولست أدرى : ما السبب الذى جعل شعراءنا لا يتغنون بهذه المناظر ولا يصفونها ؟

ولعل اهتمامهم بمشكلات الشعب .. هو الذى جلب انتباههم ، وجعلهم لا يلتفتون الى النواحى الاخرى .. وان كنت لا أرى هذا مبررا لعدم اكتراثهم بهذه الناحية .. اذ من الواضح جدا : أنه فى امكان

الشاعر الحق ، ان يثير اهتمام المواطن .. بقصيدة يتحدث فيها عن منظر طبيعى فى وطنه ، فيحبب اليه هذا الوطن . ويجعله يحس بالفخر والاعتزاز ، ويشعر بأهمية بلاده .. وما يحوى من خيرات ، ومناظر جميلة .

ومع هذا النقص الخطير ، فهناك البعض من الشعراء الذين حاولوا .. فى قصائد قليلة .. أن يتداركوا هذا النقص الكبير الذى لا أجد له مبررا أصلا .

هناك من تحدث عن الصحراء ، وعن رمالها ، ونخيلها ، وحياتها الساذجة البريئة .. مثل الشاعرين « أحمد الباتنى » و « أحمد سحنون » . وهناك من تحدث عن الربيع وازهاره ، وعن البحر وزرقة مائة ، وعن النهر وخرير مائة .. فالباتنى فى قصيدته « لحن من الصحراء » قد وفق الى أبعد حد . فقد فتنته الصحراء برمالها الذهبية الفاتنة ، ونخيلها ذى الجنى الطيب .. الذى يتناثر فى هذه الصحراء المترامية الاطراف ، وكأنها بحر يموج بعضه فى بعض .. هذا النخيل الذى يرتفع كثيرا فى كبرياء وشموخ ، وكأن رءوسه صقور تجوب آفاقا عالية ، حاملة فى مخالبها السمحة جنى صيد يباهى به الثريا :

بسط الرمل راحتيه وحيا	وحيا النخل طيبه القدسيا
واستوى فى الفضاء يرفع جيدا	مستطيلا يضوع مسكا زكيا
فكان النخيل فى البيد بحر	ذو سوار يخوض بحرا حبيا
حالقات ، كان فى كل راس	جنح صقر يجوب افقا عليا
هز فى المخلب الكريم جنى با	ت يباهى بما جناه الثريا
حائمات اسرابه فوق ساج	لا شراع به لغوص تهيا

ولكن هذه الصحراء التى سحرته .. وخلبت لبه ، قد أثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، ذكريات .. لا يمكن أن ينساها العربى أينما كان ، وحيثما حل . فالصحراء ذكرت الشاعر بمجد آبائه الاولين ، الذين انطلقوا منها ليرفعوا علم النضال ، وينيروا الطريق للانسانية التى سعدت فترة بهذا القبس المنير المضىء ، وهى من ثم : موطن الوحى ، ومهبط الالهام ، ومواطن الجدود الاباة العظام :

موطن الوحى لا اخالك الا	منبع السحر سرمدا ابديا
من لآلى ثراك ينبثق النو	ر فيكسو الحياة معنى ثريا
كنت يا موطن الجدود رحيما	ببنيك الاباة .. كنت سخيا

ثم يسترسل الشاعر يصف حياة سكان الصحراء البدو الرحل .. يصف رحيلهم ، وسمرهم بالليل ، وغناء الرعاة .. وقد سحرته هذه النغمة التى تنبعث من الناى فى رقة وعذوبة ، ثم هذا النداء فى البكور ، هذا الاذان الذى يوقظ النائمين يدعوهم الى الصلاة .. ولا يسمح المقام بنقل القصيدة كلها ، فهى طويلة مثل قصائد الشاعر الاخرى .. والحقيقة أن الباتنى يملك قدرة عجيبة ، وطاقة كبيرة ، عندما يصف .. أو يناجى الكون ، ويتأمل الحياة والاحياء . وله قصائد رائعة ، مثل :

« سرابيل الحياة » و «عبادة الحب» وهو طويل النفس ، سلس التعبير ، وان كان مقلا فى انتاجه ·

وهناك شاعر آخر تحدث عن الصحراء ، شاعر من الشيوخ ، هو : « احمد سحنون » فقد تحدث عن الصحراء فى قصـيدة بعنـوان « الصحراء » وحديث سحنون عن الصحراء .. حديث عادي يصف الصـحراء وصفا ماديا ويوازن بينها وبين المدينة ، ويفضلها على المدينة · ومطلع القصيدة :

اصحراء انت الكون بل انت اكبر — وشخصك فى عينى أبهى وابهـر

وبالرغم من أن الشاعر حاول ان يصف الصحراء ، ومناظرها ، وحياة سكانها ، الا أنه لم يستطع أن ينقل لنا احساسه وحبه للصحراء ، ويجعلنا نتاثر بل نشاركه احساسه وحبه لها . وقد افلح « الباتنى » فى هذا بما حشد فى قصيدته من صور تعبيرية جميلة ، وبما أضفاه على الصحراء من خيال شفاف ، وبما اشاع فى قصيدته من حنان وعطف يبدو فى هذه الالفاظ الموسيقية الجميلة ، التى تجعلك تحب الصحراء دون ان يدعوك الشاعر الى حبها جهرة ، مثلما فعل « سحنون » الذى يقول :

انا ابنك قد لقنت حبك ناشـئا — وانى على ذا الحب لا اتغـير
وشاعرك البانى عـلاك ومن غدا — بمجدك فى الدنيا يتيـه ويفخر

وهناك شـاعر آخر قد فتنته الصحراء ، وتغنى بجمالها ، حتى دفعه حبه للصحراء أن جعل عنوان ديوانه « الصحراء » وهو ديوان لم ير النور بعد ·· فما زال تحت الطبع ·· على ما اعتقد · وهذا الشاعر هو الاخضر السائحى الكبير . وهو الآن بالجزائر العاصمة ، ومن سوء الحظ اننى لم أتمكن من أن أصحب معى بعض قصـائده ، ولعله الشاعر الوحيد الذى تغنى فى شعره بمناظر الجزائر الخلابة ·

والجدير بالملاحظة : ان الشاعر الكبير « مفدى زكريا » هو الآخر له قصيدة فى الصحراء ·· ولكنها قيلت بعد الثورة ، وسنعرض لهـا فى الوقت المناسب ، لانها من الشعر الثورى الذى أفردنا له فصلا آخر .. وهذه فى الواقع ظاهرة تسترعى النظر فى الشعر الجزائرى ··· ظاهرة الاعتناء بالصحراء والحديث عنها . ولعل السبب يرجع الى الحنين للماضى ··· الى الصحراء التى أنجبت محمدا الرسول الأعظم ·· وانجبت خلفاءه ، وابطـال العروبة ·· والاسـلام · أو ربمـا يرجع الى الصحراء نفسها التى تغرى بالحديث عنها ، لما فيها من حياة سـاذجة سلسة حلوة ·· تدعـوك الى حبهـا ، والتغنى بمناظرها الجميلة الساحرة .

واذا كان هؤلاء الشعراء قد فتنوا بالصحراء .. فالشاعر «العقون» قد فتن بالبحر والنهر والربيع .. فالشاعر « العقون » ضـاق ذات يوم بالحياة والاحياء ، فلاذ بالبحر يبثه همومه وأحزانه :

هانا اليـوم قد وقفت اناجيـ — ـك يا بحر فاستمع لنشـيدى

ويستمر الشاعر يشكو من الحياة والاحياء ، ويبث البحر احزانه وآلامه ، ثم يصف البحر وصفا رائعا جميلا .. هذا البحر الذى هو مرعى الخيال ، والمورد الخصب لهذا الخيال . بل انه فوق كل وصف وكل حد .. لانه مفتون بالغيد اذا ما جئنه يوما .. عاريات باديات النهود ، يعبثن بمائه الازرق الذى يغريهن بالعبث وهن فى نشوة من حسنه الساحر .. انه يسحرهن بصفائه وفتنته :

انت مرعى الخيال مورده الخصـ	ـب وان كنت فوق كل الحدود
انت مغرى بالغيد ان جئن يوما	عاريات وباديات النهـود
عابثات بمـائك الازرق المغـ	رى نشاوى بحسنك المعبـود
يجتلين فيـك مرآة سحر	شع فى عمقها حلى كالعقـود

والقصيدة كلها تسير على هذا النسق الذى يخلو من حرارة العاطفة . ومطلعها ضعيف جدا . فقد كان الاجدر بالشاعر . أن يتجنب هذه الهاء التى لا يصح مطلقا ان يبدأ بها شاعر قصيدة فى وصف منظر طبيعى مهما كان . انما تصلح للمنبر وايقاظ الرقود . ولكن الشاعر فى قصيدته « فى مولد الربيع » قد تدارك هذا التقصير ، وسجل احساسه بمولد الربيع وقدومه .. فى نفس هادىء محبب ، وفى هدوء جميل .

ومن ذا الذى لا يطرب لقدوم الربيع ، ولا تستخفه النشوة الحالمة عندما يشاهد الطبيعة .. وقد اكتست ثوبا قشيبا ، ودبت الحياة .. فى الحياة والاحياء ، على السواء . انه شهر الجمال والشباب :

قد بدا البشر من محيا الربيـع	فازدهى الكون بالجمال البديع
مذ تراءى للناظرين سـنـاه	خف كل فى نشـوة ونزوع
يا له منـظرا يحـرك أوتا	ر فؤاد يهتز للتوقيـع

واذا كان الناس يبتهجون بقدوم الربيع ، ويسرون لقـدومه . فكذلك الطبيعة .. نفسها .. تحس بجماله . فالروابى قد رفلت فى حلل الجمال الوديع ، ولبست برودا قشيبة .. جعلتها تخطر فى دلال محبب للجميع .. لبسـت كل هذا الجمـال بعد عرى أصابها ، ورياح هوج قد أزالت عنها حللها القشيبة . ولكنها قد استردتها فى الربيع .. وهى مزهوة ، وعليها بسمة ساحرة .. فباتت تسحر النفوس التى تعشق الجمال :

والروابى قد أسفرت عن وجـوه	زانها منظـر الجمال الوديـع
اكتست بردها القشـيب وتاهت	فى دلال محبب للجمـيع
بعـد عرى اصـابها ورياح	لفحتها وذلة وخشـوع
فـبدت مزهـوة وعليـها	بسـمة من دموع غيث مريع
وغدت تسـحر النفوس بوشى	ناطق .. بجـلال سر منيـع

واحس الاحياء أيضا بجمال الربيع ، ودبت الحركة فى هـذه الفراشات الهائمة على الزهور ، تداعب ثغرها فى بهجة وولوع ، طائرات سابحات مع النسيم ، تهمس للنـدى وللزروع ، غارقات فى حلمها اللذيذ ، تنشر العفة والصفاء والطهر والأمـانى فهى كالربيع تماما .. وليست الفراشات وحدها التى استخفها الفرح فانتشت بالربيع . انه

يشـــاركها أيضا .. هذا القطيع من الغنم الذى انتشى .. هو الاخر بهذا اللحن الشجى ، الذى ينطلق من أرغن رعـــاة القطيع .. يردد أحلام الشباب ، وأمانى الرعاة . انه نغم حاو يفعم النفوس سرورا ، وهــو اشهى الى النفس ، واوقع فى الأذن .. من أى صوت آخر . كل القلوب تهفو اليه ، وتحن شوقا الى الاصغاء اليه .. فالربيع .. بعـــد كل هذا .. يلهم النفوس ، ويبعث فيها الاحســـاس بالحياة . فياليته لم يمل الى التوديع :

والفراشات حائمات على الزهـــر يداعبـــن ثغـــره فى ولـوع
سابحات مع النســـيم المنـدى هامسات الى النـــدى والزدوع
غارقات فى حلمها تنشر العـــفة والطهر والمنى .. كالربيـــع ..
والقطـــيع انتشى بلحن شـــجى قـد تغنى به رعاة القطـــيع
نغـــما يفعم النفـــوس سرورا هو اشهى من صوت كل سجوع
كل قلب اليـــه ينبض شـــوقا وهيـــاما كومض برق لمـــوع
لاعدمت ((الربيـــع)) ماهم قلبى ليته لم يمـــل الى التـــوديع

ولعل قصيدة « الشاعر » فى النهر بمسقط رأسه « برج الغدين » خير ما يفصح عن شاعريته وقدرته على الوصف .. فقد تمنى فيها ، بل استرجع فيها ذكريات طفولته ، وكيف قضاها على هذا النهر الذى عاد اليه بعد غيبة ، وهو اشد ظمأ الى أن يمتع نفسه بمنظره الجميل :

قد عدت للنهر الحبيب ظامئا أطفى الزفير
متسليا بجماله الاخاذ انصت للخرير

هذا النهر الذى يذكره بايام صباه ، وعهد الطفولة المرحة . فقد قضى فيه يوما يسترجع ماضيه القصير .. قضاه فوق المروج الخضر ، ما بين الحشائش والزهور .. ليحيى به عهدا مضى ، وليجـــدد أيام طفولته العزيزة .

وقضيته يوما جميلا من مدى العمر القصير
فوق المروج الخضر ما بين الحشائش والزهور
أحيى عهودا عذبة قضيتها الطفل الغرير

لقد كان فى طفولته يشدو كالطيور ، ويغرد منتشيا بجمال هـــذا النهر .. ويروح يعبث بمياهه الجاريات ، وبزهوره المخضلة الجميلة ، وتسحره الغابات التى تمتد على جـــانبى النهر .. هادئة ساكنة ، ومن حولها : هذه الجبال الشاهقات التى تغمر النفس بهجة وغبطة ، وهو فى كل ذلك : يصغى الى هذه الطيور التى ترتل آيات الجمال .. ويشـــم معها نوار الخمائل حين تعبق بعبيرها الفواح . ثم يتابع هذه الافراخ فى اشجارها ، وفى أعشاشها ، يبحث عن بيضها فى كل مكان .. وكثيرا ما قلد الشاه فى ثغائها ، أو النسور فى صفيرها .. وهو يستمع الى رجع صدى صوته كيف تردده الكهوف ، ويمضى : بعـــد كل هذا .. ليطلق آهة يتحسر فيها على ماضيه مع هذا النهر الجميل :

اشدو كاطيار نشاوى بالاصائل والبكور
واروح اعبث بالمياه الجاريات وبالزهور

واظل في الغابات بين هدوئها الساجي المثير
بين الجبال الشاهقات اعيش مغتبطا قرير
أصغي الى ترتيل آيات الجمال مع الطيور
واشم نوار الخمائل حين تعبق بالعبير
واتابع الافراخ في اشجارها أو في الوكور
وابحث عن بيض الطيور لدى المغاور والوعور
احكي ثغاء الشاة او احكي الصفير مع النسور
وصدى الكهوف مع الجداول والغراب اذا يطير
امضي لتحقيق الاماني لا أبالي بالفتور
آه على تلك الليالي قد مضت ليست تحور

هذه بعض النماذج لشعرائنا في وصف الطبيعة التي لم يناموا بين احضانها ، وانما حيوها من بعيد ، تحية رقيقة ، محتشمة . وكان من حقهم أن يمتزجوا بها ويكشفوا جمالها الساحر ، ويبرهنوا على احساسهم بجمال الطبيعة في أرض الجزائر الساحرة .. ولكن : لسبب او لآخر .. لم يفوا هذه الناحية حقها ، ولعلهم في المستقبل .. يتداركون هذا الجانب الهام الذي يستحق منهم كل العناية ، وكل الاهتمام ، فيفتحون بذلك آفاقا جديدة في الشعر الجزائري ، الذي مازال يدور حول نفسه ، دون أن ينطلق الى الآفاق الرحبة الواسعة .

الارهاص الثوري

ربما لا يعرف الكثير من الناس ، أن الشعر الجزائري .. قد ارهص بالثورة ، وتكهن بها ، بل : ودعا اليها .. بصراحة .. في اغلب الاحيان ، ورمز اليها في بعض الاحيان الاخرى .

وانه لمن اغرب وثبات الخيال في هذا الشعر : أن يتكهن حتى بمكان الثورة ، وبانطلاقها من الجبال .

ان المرء ليقف حائرا أمام هذه الومضة الخاطفة في الشعر الجزائري .. ان الشعر يتكهن بالثورة ، ويعين لها الجبال .. كمنطلق ومركز للانفجار ..

ربما يكون الشعر قد رأى في الجبال رمزا للقوة والمنعة . ورأى فيها الحصن المتين الذي يمكن ان يلوذ به الثوار في يوم ما . وقد يكون وثبة خيال جرئ . ولكنها .. على اية حال .. كانت صادقة لقد ايدها الواقع .. فانطلقت الثورة من الجبال ، وحققت احلام الشعراء .. بعد تكهناتهم وارهاصاتهم .. بزمن طويل .

ولعل اول قصيدة ، او اول نشيد ، قد تكهن بذلك ، هو نشيد « من جبالنا » . ويبدو انه ظهر أعقاب مأساة الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ ، بعد تلك المجزرة الكبرى التي ذهب ضحيتها اكثر من ٤٥ الف نسمة في ظرف ٢٤ ساعة .. ظهر هذا النشيد فجأة ، وردده القلوب المتعطشة الى الحرية والاستقلال ، ولم يظهر قائله . ولا شك انه معروف للبعض . فقد حفظ هذا النشيد .. الكبير والصغير ، واتخذوه رمزا

للنضال ، ينشدونه فى كل مناسبة وطنية ، وفى كل اجتماع .. وفيه دعوة صريحة الى الثورة ، والى التحرر ، ومطلعه هو :ـ

من جبالنا طلع صوت الاحرار ينادينا للاستقلال
ينادينا للاستقلال لاستقلال وطننا

وفيه دعوة جهيرة الى التضحية من اجل الوطن وحريته .. التضحية بكل غال ونفيس من اجل شرف الوطن :

تضحيتنا للوطن خير من الحياة
اضحى بحياتى وبمالى عليه

هذا الوطن الذى يستحق كل شيء .. يستحق الحب العميق ، الحب الذى يفنى فيه الفرد . ويسلو كل ما فى الحياة .. لان حب الوطن أغلى مما فى الحياة من لذائذ وشهوات :

يا بلادى يا بلادى انا لا أهوى سواك
قد سلا الدنيا فؤادى وتفانى فى هواك

هذه البلاد التى لها تاريخ مجيد ، ولها صولات وجولات .. وفوق ذلك : فيها من الحسن والبهاء ، ما يجعلك تحبها .. وتدافع عنها :ـ

لك فى التاريخ ركن مشرق فوق السماك
لك فى المنظر حسن ظل يغرى بهواك

فما على ابناء هذا الوطن الا ان يكونوا بمثابة السور الذى يحميه ، ويرد كيد الاعادى عنه ، وهم جديرون بذلك .. فهم اهل عزم وثبات :

نحن سور بك دائر وجبال راسيات
نحن ابناء الجزائر آل عزم وثبات

هذه مقطوعة من النشيد الذى تنبأ بالثورة ، وكان ارهاصا لها .. قبل قيامها بأكثر من ثماني سنوات ، وهو : ان دل على شيء ، فانما يدل على أن الايمان بالثورة ، كان هو السبيل الوحيد للتحرر من الاستعمار الفرنسى البغيض . وأن هذه الثورة .. ستنبعث من الجبال ، سيثيرها الفلاحون الذين ذاقوا مرارة الاضطهاد ، وعرفوا الاستعمار فى أبشع صوره .

هذه الجبال التى لم تطاطىء من راسها فى يوم ما .. للدخيل ، ولا خضعت للاجنبى المحتل . والذى يعتدى على أبنائها .. فقد اعتدى عليها ، واستهان بها ، والويل ... ثم الويل .. للذى لايحترم الجبال الثائرة . كما رمز بذلك الشاعر « محمد العيد » فى احدى قصائده :

نحن الجبال بنو الجبا ل صدى الجبال بنا حدا
من سامنا ايذاءه فعلى الجبال قد اعتدى
ومن استهان بنا استهان بها فحل به الردى

والشاعر « العيد » يعبر عن تعطش الشعب الجزائرى للحــــرية ، وتلهفه الى الانعتاق من ربقــة الاستعمار الاجنبى ، ويســتــرشد الحرية الحمراء ، هذه الحرية التي لا تأتى بغير الدم ، والتى ركب لهــا الشعب .. المركب الخشن . هـــذه الحرية ، التى طالت غيبتهــا على الشعب الجزائرى الذى يرنو اليها ... فى شــوق لاهف ، ويتطلع الى شمسها المشرقة الوضاءة :

« نبتغى العيش فى الجـــزائر حرا	مطلقـــا لا يخفـــــه ارهـــاب
ارشدينا السبيل أيتها الحمـــــ	ـــراء انا قوم اليــــك ركاب

هذه أبيات من قصيدة للشاعر « العيد » بعنوان : (نبتغى العيش فى الجزائر حرا) وهى قصـــيدة طويلة ، يحث فيها الشباب الجزائرى على العمل الجدى ، وعلى الاتجاه الى الشرق العربى ، الذى هو موئل العروبة ، وهو الذى حافظ على العروبة ... فهو المورد البارد السائغ الشراب :

ياشباب اتجه الى الشرق واحفظ	كل كنـــز له اليه انتســـاب
انما الشرق نسبة العرب الاحـ	ـرار لم تنقطع لهــا اســباب
انما الشرق للعـــروبة كهف	آمن الظــل بالأذى لا يصــاب
انما الشــــرق للعـــروبة ورد	بارد المــاء سائغ مســـتطاب

وللشاعر أرهاصات تبدو فى قصيدته (فى يوم باتنة العظيم) هذه القصيدة قالها فى افتتـــاح مدرســة باتنة « عاصمة الاوراس » والتى مطلعها :

حثثنا نحو باتنـــة المطـايا	وجئنــاها نزف لها التحــايا
ونهـــديها تهـــانىء طيبـــات	تنم عن عـــواطفنا شـــذايا
ونذكرها روائع ذكريات	كوامن فى جوانحنـــا خبـــايا

وهذه المدينة تستحق كل تحية عطرة مفعمة بالحب والصدق . أليست أخت الأوراس الشــامخ . ثم أليست جارة (توقر) الخصيب الجميل :

أليســت اخت أوراس المعــلى	وجارة توقر الخصب الحنايا

وان المرء ليعجب حقا ، من تردد الجبال فى شعر شعرائنا . انها ظاهرة حقا .. تسترعى النظر ، وتدعو الى التعمق والعجب . انهم كثيرا ما يفتخرون بالجبــــال .. هذه الجبال التى رأوا فيهـــا مهدا للثورة ، وملاذا للاحرار ... الذين سيحررون وطنهم من العبودية التى طالت ... فسئمها هذا الشعب الذى لا يمكن أن يموت أبدا :ـ

وكيف يمـــوت شعب عبقرى	به الفتيـــان تنبـغ والفتـــايا

هذا الشعب الذى اذا ما دعا ابن له فى (توقر) اجابه فى «جرجرة» ابن لايخذل من دعاه واستنجد به :ـ

اذا ما دعا فى (توقر) ابن اجابه	بجرجرة ابن ليس يخذل من دعا

ثم ان الشاعر يدعو الى الثورة فى صراحة .. هذه الثورة التى يقوم بها الحر الجرىء الذى يخوض الوغى فى كتيبة ، ليحرر بلاده .. أو يموت موتة كريمة : ـ

والا من اختاض الوغى فى كتيبة ليفتح مصرا أو يلاقى بمصرعـــا

وقد استجاب الشعب الجزائرى لهذا النداء ، وحقق للشعراء حلمهم الجميل فى الثورة على العدو الغاصب . فكانت الانطلاقة الكبرى يوم فاتح نوفمبر العظيم الذى كان فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين الفكرية والسياسية .

وسنتحدث عن الشعر الثورى الذى واكب الثورة .. وعبر عن أهدافها ، وسجل انتصاراتها ، فكان بذلك : لسانها الأمين ، وسجلها الوفى ، ومرآتها الصقيلة التى عكست بطولة شعبنا الثائر من أجل الحرية والكرامة الانسانية .

وقبل الانتهاء من هذا الفصل ، لابد من الالماح الى أن الشعر الجزائرى فى هذه المرحلة قد تطور تطورا محسوسا من الناحيتين : ناحية الصياغة ، وناحية الموضوع .

فمن الناحية التعبيرية ، رأينا من النماذج التى سقناها «كشواهد للتمثيل لا للحصر.» أن الشعراء قد اعتنوا بألفاظهم اعتناء يبدو فى بعدهم عن الالفاظ الجوفاء الفارغة المألوفة ـ فالالفاظ بسيطة منغمة ، والموسيقى تشيع فى القصيدة ، والوحدة الموضوعية ... توافرت بشكل ملحوظ ، وقلت الأخطاء اللغوية والعروضية بصورة واضحة .

اما من الناحية الموضوعية ، فقد رأينا : كيف تعددت الاغراض ، واختلفت الموضوعات . وأخذ الشعراء يبحثون عن مواضع جديدة فبالاضافة الى الموضوعات الوطنية والسياسية والقومية رأينا كيف أن البعض من شعرائنا حاول أن يطرق مواضع أخرى ، مثل الوصف والحديث عن الطبيعة ، بل هناك من ناجى الكون فى حكمة لا تخلو من طرافة .

وقد شاع فى معظم قصائد هذه الفترة الحديث عن : الحرية والاستقلال والعلم ، والنضال ، والدعوة الى العلم والثقافة ، والاتجاه نحو الشرق العربى .,. الى غير ذلك من المواضيع والاغراض التى تحدث عنها شعراؤنا ، وسجلوها بصدق واخلاص ، فكانوا بذلك : مرآة للشعب الجزائرى الذى كان يتحفز لمرحلة أخرى جديدة .. مرحلة الثورة ، والخروج من السلبية الى الايجابية الفعالة .

وباختصار : فالشعر الجزائرى قد قطع فى هذه المرحلة شوطا بعيدا نحو النضوج والاكتمال ليكون خميرة طيبة لأدب ثورى جديد .. أدب ما بعد الثورة ، وهو الأدب الذى واكب المعركة ، وعبر عنها أصدق تعبير . وهو ما سنفرد له فصلا خاصا بحول الله .

الفصل الرابع

شـــعر الثورة

١ – أول نوفمبر :

كانت انطلاقة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، فاصلا تاريخيا بارزا فى حياة الجزائر . فقد تغيرت فيها المفاهيم ، وانقلبت الاشياء رأسا على عقب ، وتغيرت فيها حيـــاة الشعب وتفكيره ونظـــره الى الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحى الحياة الاخرى ..

لقد بدأ الشعب حياة جديدة كل الجدة منذ الثورة المباركة . بعد أن وجد نفسه ... وقد كانت تتخبط فى متاهات من القلق والتذبذب والحيرة القاتلة . فالسياسة قد أفلست ، والزعماء المحترفون قد برهنوا على عجز تام لفهم الشعب ومطالبه الجوهرية . فاخذ الشعب يتطلع الى زعامات جديدة ، وقيادات جديدة تنتشـــله من هوة اليأس التى اوشك ان يتردى فيها بسبب تطاحن (الساسة المحترفين) على الزعامة ، وعلى الكراسى الوثيرة المريحة ، وتركوا الشعب يجتر آلامه فى صمت ، وتكاد الغصـــة تخنقه وتورده موارد الهلاك واليأس المميت ، ولعل خير قصيدة تعبر عن هذه الفترة ، فترة ما قبل الثورة بقليل ، قصيدة الشاعر « محمد العيد » الذى أفصح عن قلق الشعب وعذابه اذ يقول :

يا فؤادا به احتـــرق	لاعج الهم فاحتـــرق
ما عسى ينفع الأسى	امة شـــملها افتـــرق
من لحـــيران فى الدجى	مسه الضـــر والأرق
يخبط الليـــل ســـاريا	متعبـــا عمـــه العـــرق
كلما شام بارقا	خاله بالمنى بـــرق
ويحه ضـــاع كل ما	فى الوغى من دم هـــرق

وهى قصيدة بعنوان (كيف يرجو الهـــدوء) ... تعبر بصـــدق عن شعور الشعب قبل الثورة ... بانه اصبح وحيدا فى الميدان ، بعد أن تخلى زعماؤه عن أهدافه ومراميه التى ضحى من اجلها طويلا .. فى ثورات متتابعة ، قل نظيرها بين الثورات وبين الشعوب .

فلما جاءت ثورة نوفمبر .. ارتمى فى أحضـــانها الشعب بكل ماللديه ، وكرس لها جهوده ، وبذل دمه وضحاياه من أجلها . فقد وجد فيه متنفسه من الحرمان الذي عاناه من الحكم الاجنبى ، كما وجـــد فيها الأمل المرتجى فى تحقيق احلامه وامانيه . ووجد فيها التعبير الحقيقى عن أحســاسه ومتطلباته . وبهذا : دخل فى مرحـــلة حاسمة

جدية .. مرحلة الثورة والانطلاق والتعبير بالقوة والدم عن مطالبه . وبات « أول نوفمبر » يوما خالدا فى تاريخ الجزائر . وباتت « ليلة نوفمبر » ليلة من أخلد الليالى فى نفوس الجزائريين . انها « ليلة القدر الكبرى » . كما سماها الشاعر « مفدى زكريا » .

وكان من الطبيعى أن يتحدث شعراؤنا عن هـــذه الليلة ، وينوهوا بأول نوفمبر رمز الثورة وبداية الانفجار .

وهذه قصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر « مفدى زكريا » يتحدث فيها عن هذه الليلة الخالدة التى دعاها التاريخ .. فاستجابت له ، كما استجابت لنداء الشعب . فهى بحق : ليلة القدر الكبرى ، فقد سطع فيها نجم الحــرية ، وانكشــف فيها الحجاب ، وجلى الليل ضاحك القسمات ، واشرقت كواكبه مضــيئة ملتهبة كالقنابل التى اندلعت فى هذا الجيل الجديد . لقد اشعل فتية الجزائر نار الثورة .. ليحرروا وطنهم ،كما هزت(جبهة التحرير) الشعب.. فهب الشعب يجرى الى غاياته البعيدة : ـ

دعـــا التاريخ ليلك فاستجابا	«نوفمبر» هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نداء شـــعب	فكانت ليلة القــــدر الجـوابا
تبارك ليلك الميمــــون نجمــا	وجل جلاله هتــك الحجـــابا
زكت وثباته عن الف شـــهر	قضاها فيـــك يلتحف السرابا
تجلى ضـــاحك القسمات تحكى	كواكبه قنـــابله لهـــابا
بناشـــئة هناك أشـــد وطئـــا	وافـــوم منطقـــا واحـــد نابا
مضت كالشهب وانحدرت شظايا	تلهب فى دجنتهـــا التهـــابا
وهزت « جبهـــة التحرير » شعبا	فهب الشعب ينصب انصـــبابا

وفى هذه الليلة الفريدة ، لعلع صوت البارود من « جبل الشالعلع » فتجاوبت معه جبال « جرجرة » وأطلقت هى الأخرى الجعاب ، وشـــبت فى ذرى (وهران) نار الثورة . فاستجاب لها « برج مدين » هو الآخر . انه جهاد دوخ الدنيا قاطبة . وزلزل سياسة فرنسا . جهـــاد شعب أناب عنه أزيز الرصاص ، ليناقش الغاصب ... الذى ايقظته القنابل من سباته وعمايته وكشفت عن ناظريه النقاب :

ولعلع من شلعلع ذو بيـــان	فاطلق فـــوق جرجـرة الجعابا
وشبت فى ذرى (وهران) نار	رآها برج « مدين » فستجابا
جهاد دوخ الدنيـــــا والقى	هنالك فى سياستهـــا اضطرابا
وزلزل من صياصيها فرنســـا	وأوقع فى حكـــومتها انقـــلابا
وأوفدت الرصـــاص ينوب عنها	يناقش غاصب الشعب الحســابا
فايقظت القنـــابل من تعـــامى	وأسـدل فوق ناظره النقـــابا

والواقع : انه بقدر ما أشعر بالمتعة الذهنية والعاطفية ... وأنا أقرأ شعر «مفدى» ... أشعر أيضا بالحرج ، بل بالضيق من مفاجآته . من هذا الانتقال المفاجىء من موضوع الى آخر ، ومن غرض الى غـــرض . فهذا الشاعر لا يهتم بوحدة القصيدة وعضويتها . (ولعل هـــذه ظاهرة

بارزة في شعرنا الحديث) • ترى الشاعر يتنقل بك من موضـوع الى آخر ، في نفس القصيدة الواحدة ، دون تمهيد ، ودون موجب لذلك •• سوى الاطالة في القصيدة ؛ وسوى أن تكون قصيدته بلغت السبعين أو أكثر في أبياتها • كما فعل مفدى في هذه القصيدة التي تحدث فيهـا عن هلال نوفمبر •• شهر الثورة ، ثم انتقـل ـ فجأة ـ الى الحديث عن الصحراء ، ثم عن أشياء أخرى غير الصحراء ، كالحديث عن السياسة وتضحيات الشعب ، وكان من حقه أن يفرد لكـل غرض حديثا خاصا • فالتسلسل المنطقي يقتضي ان يكون الحـديث عن اول نوفمبر •• مربوطا بالحديث عن الثورة • وعن الشعب وأهدافه ، وعن تكتل الشعب ، وعن ماضيه الطويل في النضال • أما الحديث عن الصحراء أو غيرهـا ••• فله موضـوع آخر • ولا يصح ـ مطلقا ـ ان يكون تداعي المعـاني هو المبرر لهذا الخلط والاضطراب • وبالرغم من كل هذا ، فحديث الشـاعر عن الصحراء حديث رائع لا يمكن اغفاله •

ان تصويره للصحراء ، ووصفه لحيـاة أهلها ومناظرها ••• شيء معجز حقا ، ويدعو الى الاعجاب والفخر • لقد تحدث الشاعر عن صحرائنا الجميلة ، هذه الصحراء التي تفجر منها الذهب الاسود فاسال لعـاب العدو ، هذه الصحراء التي ضحينا بدمائنا من أجلها ، ففتحنا بجهـادنا بابا للخلد وطريقا للمجد :

وفجـر بئر « مسـعود » بلال	فأذن واسـتمال له الرقـابا
وكبـر للجهـاد بها فقمنـا	ننضـح بالدم النـالي الترابا
شـققنا فوقها للمجد طرقـا	وفتحنا بهـا للخلد بابـا

ان صحراءنا جميلة ، فيها جنات عدن • فيها الثروة تنسـاب ايما انسياب ، فيها كنوز عامرة بالخيرات ، فيها الذهب الاسـود ؛وفيهاالتمر الطيب الجنى ، فيها السحر والشعر ، فيها الادب والعلم والجمال :

وفي صحرائنا جنات عـدن	لها تنسـاب ثروتنا انسـيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنـوز	تطارد عن مواقعهـا الغـرابا
وفي صحرائنا تبر وتمـر	كلا الذهبين راق بها وطـابا
وفي صحرائنا سحر وشـعر	كلا الملكين حط بها الركابـا
وفي صـحرائنا أدب وعلـم	زكى بهمـا المثقف واستطابا

أما واحات صحرائنا الجميلة ؛ ففيها ظل ظليل ، وماء وفير ، ففي سمائها قمر منير نطارحه الاحاديث العذبة ، وتحت خيامها تختبيء العيون الزاخرة بالثروة التي أسالت لعاب الدنيا :

وفي واحاتنـا ظل ظليـل	تفور بها نواعرها حبـابا
وفوق سـمائها قمـر منير	نطارحه الأحـاديث العـذابا
وتحت خيامها انحبست عيـون	اسـالت من فم الدنيا لعـابا

هذه الصحراء التي هزت (مريم) يوما نخيلها ••• فاسقطت منها الرطب الزكي ، هذه النخيل التي يرتاح اليها الغنام وهو يرسل الغـام

الناى العذبة الساحرة • انه يدلى فى الغدير العذب ساقه •• يداعب مياهه الحلوة ، ويغترف منها بيديه ليطفىء ظمأه ، قرير العين فى هذه الفلوات الشاسعة • ولكنه اليوم : أصبح يعاف الناس ، يعاف هذه الذئاب التى كدرت صفو حياته البريئة • فقد كان لا يعرف ـ فى هذه الجنة ـ النفاق والخداع ولا خيانة الاصدقاء • ولكن : منذ رأى هؤلاء الأغراب •• انقلب هناؤه الى شقاء ، وباتت حياته كلها عذابا مستمرا :

وهزت مريم العذراء نخــــلا   فاسقطت الفلوزج والرطـــابا
يدغدغ تحتها الغنام نايــــا   فيطلق من فم الغنم الربابــا
يدلى فى الغدير الحلو ســاقا   وبالكفين يغترف الشرابــــا
قرير العين فى الفلوات أضــحى   يعــاف الناس مذ ألف الذئابا
فمــا يدرى بجنته نفاقــا   ولا كذبا ولا خــان الصحابا

وهناك فوق هذا كله •• هناك الحــادى الذى يناغى عيسه وهى تطأ منــابع البترول • ويهمز خيله الأصيلة يناغيها وهو نشــوان ويشدو على خطواتها بصوته الهادى الذى يبعث فيها النشوة ، فتطوى المراحل الشاسعة ، وتقطع الفلوات والبرايا •• دون كلل أو فتــور ، وتنصت الى اغانيه فى لذة فتنسى تعبهــا وعذابها مثله تماما • انها تسعى فوق هــذه الرمال ، وهى لا تدرى أنها تمشى وتحت نعالها استقلال البلاد ، هذا الاستقلال الذى يلاقى الصعاب فى منظمة الأمم المتحدة •

وفوق منابع البترول حــاد   يناغى العيس والخيل العــرابا
على خطواتها نشوان يشــدو   فتطوى فى مراحلها اللبــابا
تساجله الاغانى وهى نشــوى   فتنسيــه وينسيها العــذابا
فما تدرى المطايا وهى تســعى   أدسن الشعب أم دسن الشعابا ؟
وتحت نعالهــا استقلال شــعب   يلاقى فى المنظمة الصــعابا

هذه قصة الصحراء ، وهى قصة شعب كامل كما صورها الشاعر الكبير ، صــورها أجمل تصــوير ، وابان بوضوح تعلق الشعب بكل شبر من أرض الوطن • وقد وفق الشاعر ـ الى أبعد حد ـ فى تصــوير الصحراء ، وفى وصفها ، ووصف حياة أهلها وأخلاقهم ، وما فيهــا من مناظر ساحرة ••• بأسلوب مشرق ساحر ، وفى نغمة هادئة رقيقــة تحبب اليك الصحراء ••• برغم حرها وشمسها المحرقة •

ان « مفدى زكريا » قد بلغ الروعة والاعجاب فى هذه القصــيدة ، بل لم نقرأ لشاعر وصفا للصحراء بمثل هذه النغمة الرقيقة ، والنفس الحلو الهادىء ، والتعبير البسيط الخلاب والانفعال الصادق المخلص ، والعاطفة الجياشة الصادقة • ولا غرو فى ذلك : فالصحراء الجزائرية •• مهد السحر والجمال ، ومرتع الشعر والخيال ، ومنبت الأدباء والشعراء ، ومهد الذكاء والقريحة الوقادة • ثم : انها الآن أكبر قضية ومشــكلة تتصادم حولها الرغبات ••• لما تحمله من كنوز وثروات ضخمة • ويكفى أنها كانت السبب فى نسف المفاوضات الجزائرية الفرنسية فى المرتين السالفتين •

وكنت حريا ان استمر في درس هـــذه القصيدة ونقل باقيها الى القارىء الكريم .. حتى يكون أكثر الماما بالموضوع الذى نحن بصدد دراسته ، ولكن طولها : اذ تبلغ حوالى الثمانين بيتا ، ثم الخـــوف من الاطالة . كل هذا جعلنى اكتفى بهذه الفقرات التى جئت بها للتمثيل من شعر « مفدى » فى أول نوفمبر ... شهر الثورة المباركة :

ولابد من جولة أخرى مع شـــاعر شاب هزته (ثورة نوفمبر) فقال قصيدة ــ هو الآخر ــ فى هذا الشهر ، بعنوان : (نوفمبر) . فالشاعر (صالح الخرفى) قد بايع هذا الشهر .. لانه شهر البطولات ــ والمواقف الخالدة ، ففيه بدأ فجر الحـــرية ، ومنه انقدح زناد الثـــورة .. فتفجر بركانها ، وفيه انطلقت الرصاصة الاولى التى اهتزت لها أرض الجزائر من أقصـــاها الى أقصاها . ففى هذا اشهر سال دم الاحرار ليروى أرض الوطن ، وينعش ثراها الذى أجدب ، ان هذا الشـــهر قد خبـــا ليلة معجزة ... معجزة ظهرت للناس بعـــد أن ظنـــوا ان عصر المعجزات قد ولى . لقد وثب فيه الاحرار ليعلنوها حربا على أعداء الجزائر :

بايعت من بين الشهور (نوفمبرا) ... ورفعت منه لصوت شعبى منبرا
شـهر المواقف والبطولة قف بنـا ... فى مسمع الدنيا وسـجل للورى
فلأنت مطلع فجـــرنا وزناد بر ... كان الثوث كمينـــه فتفجـــرا
دوت بمطلعك الخصيب رصاصـــة ... فاهتزت (البيضاء) وانتشت الذرا
وانداح فجرك عن دمصب من دم ال ... أحـــرار فانتعش الجديب وأزهرا
خبـات معجزة تمخض ليلك الد ... اجى بها والارض فى سنة الكرى
يا وثبة الأحرار منـا ، يا (نوفمبر) ... لما نزل علمــــا لقافلة السرى

إنه شهر الثورة ، شهر تقدس فيه كل الأشـــياء المهولة ، فقد قدس فيه الشاعر ... النار التى تلتهم الدجى ، قدس فيه الدمع ، قدس فيـــه الموت الذى يفتخر به كل من يعلو المقصلة من أجل وطنه وحرية بلاده ، قدس فيه الشيب الذى خضب بالدم ، قدس فيـــه الطفل الذى يلفظ انفاسه ، قدس فيه هذه الشاهقات ، هذه الجبال الشامخات ، بما فيهـــا من ثلوج وصخور عاتية :ــ

قدست فيك النار تلتهم الدجى ... فتحيل ظلمته لهيبا احمـــــرا
قدست فيك الدمع ، جف بمقلـــة ... أغفت لتكتحـــل الصباح المسفرا
قدست فيك الموت مفتخرا بمن ... يعلو المقاصل كى يتيه ويفخـــرا
والشيب خضب بالدماء فما احتفى ... بالعمر صوح نبته أم أزهرا
والطفل يلفظ بالطوى أنفاســـــه ... ثدياه خيطـا بالرصاص وما درى
قدست فيك الشاهقات ثلوجهـــا ... وصخورها وأتمت منها المشـــعرا

وبعد هذا الحديث عن شهور الثـــورة والاشادة بفضله ، ينتقل الشاعر الى الحديث عن العالم العربى ... عن كل بلد من بلـــداله ... من الخليج الى المحيط . ولكنه انتقال مفاجىء ، مثل الذى رأيناه لدى مفدى فى قصيدته السابقة . وكان فى مقدور الشـــاعر أن يكتفى بالحديث عن نوفمبر ، ثم يعنون الباقى من القصـــيدة بعنوان آخر « كالوحدة » او

« ثورة القومية العربية » ... مثلا ، فيتجنب بذلك هذا القفز والوثب الذى لا داعى له .

وقد يقال أنه أراد أن يتحدث عن الثورة الشاملة التى تجتاح العالم العربى فى هذه الفترة ، وهو ما يجب أن يهتم به شعراؤنا ، لأن قضية العروبة ... قضية واحدة فى مغربها أو مشرقها . ولكن هـذا ، يصح أن يكون مبرزا ... لو أن الشاعر قد مهد للانتقال المفاجىء بتمهيد يتماشى مع التسلسل المنطقى للأشياء ، والربط بينها برباط وثيق ، أما أن ينتقل من نوفمبر ، الى ثورة المغرب العربى ، ثم لليبيا ثم .. الى آخر ما ذكر ... من حديث عن ثورات العالم العربى ... دون أن يهيىء الاذهان الى ذلك ، فهذا يعد عيبا من الناحية الفنية للشعر ، ويعد عيبا فى بناء القصيدة . ولكن مع هذا : نلتمس عذرا للشاعر الذى طغت عليه عاطفته واحساسه بعروبته ، فضرب بقيود الفن عرض الحائط ويشفع له احساسه الصادق ، وخياله الجموح .. الذى حن الى الوحـدة الشاملة لوطنه العربى ، كما هزته هذه الثورات التى تجاوبت بها أصقاع العالم العربى : فى المغرب العربى ، فى تونس الخضراء ، فى المغرب الاقصى، فى ليبيا الحرة ، فى الجبل الاخضر بعمان :ـ

يا ثورة فى (المغرب العربى) وحدت القلوب ووثقت فيه العرى
امست بها (الخضراء) حمراء الروابى كل شبر عبأته معسكرا
(والمغرب الاقصى) تطاع زاحفـا فى ظل رايتها يسـير مظفرا
يا وثبة فى (ليبيا) لو عاشها (المختار) هلل للجهاد وكبـرا
يا صيحة فى شرقنا العـربى تحنو للعائدين وتستفز الاخضرا
يا اخوة الجبل الاشم لكم نداء رددته (الونشريس وجرجرا)
جرحان نحن وانتم فى ملتقى الروايات وحدنا الضمـاد وأصهرا

ثم هناك اخوة لنا ، هناك وطن سليب لابد من استرجاعه ، هـذا الوطن : هـو « فلسطين» التى لابد أن نعـود اليها ونطرد منهـا أبناء صهيون الدخلاء :ـ

يا اخوة الوطن السليب لنا غد سيلوح ملتهب المطالع أحمرا
قسما،ستجمعنا (ليافا) عودةالنازى،اذا انبلج الصباح واسفرا
عيناك(يا يافا)ستجعل عهد اسرائيل بين جعونها طيفا سرى

وهناك ثورة عارمة أخرى ، ثورة عربية فى (بور سعيد) التى حطمت احلام المستعمرين وقضت على آمالهم ، لقد حنت فيها « دار لقمان » الى أن تستضيف الطامعين مرة أخـــرى ، تأسر الاحفاد بعد أن أسرت الاجداد :ـ

يا ثورة بور سعيد تجـاوبت أصـداء غضبتها تهز الابحرا
يا شهر حنت دار (لقمان) الى أن تستضيف الطامعين وتأسرا
فابعث لها «ديجول» يخلف «جده» فنزيلها بالامس طابله القرى
يا موجة غمرت أعالى النيل ، ثم عمت (أسوانه) و (الاقصرا)

ثم يستمر الشاعر فى ذكر البلدان العربية ، يذكر ارض الرافدين،

والأرز ، والحرم الأمين ، وقطر ؛ والبحرين ؛ والكويت . يذكر كل ذلك في نغمة حلوة ، تثير في النفس حب العروبة ، والتغنى بأمجادها وتاريخها المشترك ؛ وماضيها المشرق السعيد .

ويعود الى الحديث عن شهر نوفمبر ، وعن ثورة نوفمبر .. التى الهبت أرض افريقيا واشعلت فيها الثورات :

يا شهرنا الدامي . سمعتك زأرة دوت (بافريقيا) فالهبت الثرى
ورأتك عيني في رحاب البيد عاصفة ، تسهد من طغى وتجبرا

ثم يعرج الشاعر فى قصيدته الى الحديث عن الصحراء ، هـــذه الارض التى سال لعاب فرنسا ودول الاستعمار على ما فيها من كنوز وخيرات . هذه الصحراء التى أقسم الشاعر بالرمضاء فيها ، وبالرياح الهوج ، وبالناقة الوجنـــاء .. التى تخب فيها واقسم بالحادى ، وبالفصحى ، وبالخيمة السوداء .. وبليلها الانيس ، وأقسم بنفطها الذى عشق سواده . وأقسم بكل هذا .. باننا مستعدون لنعيد ذكرى القادسية، وسنشنها حربا طاحنة تطيح بأعداء العروبة .. هؤلاء الذين يتاجرون بالحروب . وقد باع فيها أجدادنا واشتروا ، فهم فرسان حومتها ، ونحن أبناء هؤلاء الاجداد الذين لا يخشون الحرب ولا يهابون الموت :

يا من على الصحراء سال لعابهم : كم موردا فيها (ساوا : هل أصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيها .. بالرياح الهوج ، تنتعل الجديب المقفرا
بالناقة الوجنـاء فيها ، لم تزل عربية الخـــطوات شامخة الذرا
اقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحى نقـــاها « حراء » وطهرا
بالخيمة الســـوداء بالليل الأنيس بنارها ما انفك طائى القـــرى
بالنفط فى الصحراء عشقت سواده الداجى وعفت به النضار الاصفرا
بالذرة الرعناء ، اقعـد راجـلا ، اشعاعها اودى واعمى مبصرا
اقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحى نقـــاها « حراء » وطهـرا
سنعيد ذكرى ((القادسية)) للنهى ، تهوى بكسرى او تطيح بقيصرا
ان كنتم تجار حـــرب ، ان من أجـــدادنا من باع فيها واشـــترى
فرسان حومتها ؟ سلو صـــهواتها كم اسرجت بابن الوليد وعنترا

وهكذا نرى أسلوبين متمايزين فى وصف الصحراء ، فكل تناولهـــا بطريق غير الطريق التى تناولها به الآخر . فقد اختار « مفدى » طريق الفن . واختار « الخرفى » طريق الثورة . فالأول تحدث عن الصحراء بلغة الشاعر الفنان . والثانى تحدث عنها بلغة الشـــاعر الثائر وفرق بين الاسلوبين فعند « مفدى » تحس بالعطف ، وبالتعبير الدافىء ، وبالنغمة المنسابة كمزمار الراعى ، وتشعر بالحب للصحراء من خلال هذه الصور والالوان التى لون بها الشاعر قصيدته . فى حين أنك تشعر بالاعجاب والفخر بما فى الصحراء من أشياء لا توجد فى غيرها . وفرق بين الحب والاعجاب ، وبين الفن والواقع . فقد اختار « الخرفى » الجزالة ، وفخامة اللفظ الذى يتناسب مع الثورة ، ويتماشى مع قعقعة السلاح ، ورنة البارود . وله وثبات جريئة مثل قوله :ــ

ان كنتم تجار حرب ، ان من أجدادنا من باع فيها واشترى

وغيرها من الأبيات التى تبعث فى النفس الفخر والاعجاب ، وتجعلك تصفق لروعة البيان فيها . ولم أنقل باقى القصيدة .. لأنها طويلة جدا . والمقام لا يسمح بنقلها كلها .

هذه بعض الملاحظات على هاتين القصيدتين اللتين قيلتا فى نوفمبر « شهر الثورة » ولم أعثر لغير هذين الشاعرين من شعرائنا الذين اهتموا بالحديث عن شهر الثورة ، وكان الاجدر بشعرائنا : أن يهتموا بذكرى هذا الشهر ، لأنه أول عيد قومى ، وأول يوم انطلق فيه صوت الشعب مدويا ومعلنا ارادته فى الحياة الحرة الكريمة ، وأول يوم انطلقت منه ثورتنا الكبرى التى توجت الثورات ، بل أشعلت الثورات فى أفريقيا ، ومهدت لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها .

وليس هناك أى مبرر لشعرائنا إطلاقا فى سكوتهم وصمتهم هذا ، وكنت أرجو أن أعثر على قصائد أخرى فى هذا الموضوع حتى أقارن بينها ، وأوازن ، وأحكم عليها ، ولكن لم أجد شيئا من هذا . وأرجو أن أكون مخطئا فى تقديرى فأرى ما يحقق رجائى أو يكذب ظنى »

٢ ـ الشعراء والشعب

من الحق أن نعترف أن شعراءنا حاولوا أن يعبروا عن أحداث شعبهم ويسايروا وثباته الجريئة ، ويمشوا معه فى حلبة الكفاح فينشدوا له أهازيج النصر الذى حققه بدمه الغالى ، ويتغنوا بأمجاده ، ويخففوا من آلامه ، ويسجلوا مراحل كفاحه .. وما تعرض له فى هذا الكفاح .

بيد أننا نلاحظ أيضا أنهم الى الآن لم يعنوا بالجوانب الهامة لحياة الشعب ، ولم يعتنوا بأشياء هى من صميم الشعب ، فلا يزال شعراؤنا تجذبهم الناحية السياسية أكثر مما تجذبهم النواحى الاخرى ، فليس هناك حديث عن الفلاح الجزائرى الذى غذى الثورة بدمه وعرقه .

ولا حديث عن الفدائى الذى ضرب الرقم القياسى فى البطولة النادرة التى لم يسبق لشعب من الشعوب أن رأى مثلها فى أى ثورة من الثورات الفدائى الجزائرى الذى يقف فى قلب فرنسا نفسها ، وهو يحمل روحه فى يده ، ليبرهن على شجاعة شعبه ، وفدائيته ؛ وبطولته النادرة وليس هناك من اهتم بحياة الصانع والتاجر ورجل الشارع الذى بات عصب الثورة وعرقها الحساس . وليس هناك من قال ملحمة فى ابطال الجبال الذين ردد العالم صدى بطولاتهم وتضحياتهم الفذة ، ولا اهتموا بالمرأة الجزائرية التى هزت ضمير العالم بشجاعتها وتضحياتها التى أصبحت مضرب المثل .

وليس معنى هذا أن شعراءنا لم يتعرضوا لهذه الموضوعات الحساسة ، وانما لم يوفوها حقها ، ولم يولوها ما تستحقه من عناية واهتمام . فقد نجد مقطوعة أو قصيدة لشاعر قد تعرض فيها لبعض هذه الموضوعات ، ولكن هذا لا يكفى ، اننا نريد من شعرائنا أن يعيشوا ثورتهم من شتى النواحى فيعبروا عن أحلام شعبهم ، وعن مشاعره ، وعن أفكاره ، وعن طموحه ، وعن كل حركة من حركاته ، ويعبروا عن هذه الوحدة الشاملة لجميع طبقاته التى وقفت مع الثورة ، ووهبت كل ما تملكه من اجل

انتصارها ونجاحها ، ولو ذهبنا نعد القصائد التى هى من هذا القبيل ، لوجدناها تعد على رءوس الاصابع . وسنتعرض لها فى هذه الدراسة بشيء من الايجاز .

وأعتقد أن أول قصيدة ظهرت للثورة فى أول الثورة هى قصيدة الشاعر « سعد الله » بعنوان « احتراق » .

فقد صدرت هذه القصيدة بتاريخ ١٩٥٥/٢/١١ ، ولم نعثر على غيرها من شعر الثورة فى هذه الفترة التى قطعت فيها « الثورة » مرحلة هائلة . وقد أهداها الى « شعراء الأبراج » كما سماهم . وهو يقصد أولئك الذين لم تحرك نفوسهم هذه الثورة العارمة . ولم يهتموا بما يجرى فى وطنهم .

فالمقطوعة الأولى تأنيب للشعراء ولوم وعتاب لهم على هذا السكوت الذى لا مبرر له سوى الجبن . ثم يخاطب الشعب بهذه النغمة المؤمنة بالشعب :

أيا شعب أنت وجودى وحبى — وايمانى الفائض المستراق
ولست أؤمل غير العناق — يعيدك خالدا .. نعيمك يفرى
احالك ظلما — زمان بغى — جحيما يفوح بلحم الرقاق

والواقع أن القصيدة ضعيفة مهلهلة من الناحية الصياغية التعبيرية ليس فيها تجديد ، ولا فيها موسيقا ، ولا ايقاع شعرى جميل ، بل ان كثيرا من تعابيرها غث فج ، لا حياة فيها ولا ماء مثل — لحم الرقاق — تجرعه العاديات الزؤام .

ولكن قيمتها — فى الواقع — ترجع الى الناحية التاريخية .. أكثر مما ترجع الى الناحية الفنية . فسعد الله من أوائل الشعراء الذين أحسوا بآلام الشعب وعبروا عن احساسهم . هذه دون تقية أو مواربة .

وهناك شاعر آخر كان له فضل السبق أيضا فى مشاركة الشعب أحزانه وآلامه وتحدث عن مشكلاته وما تعرض له من محن على أيدى الجلادين الفرنسيين هذا الشاعر ، هو : « أحمد الباتنى » فقد نشر قصيدة بعنوان «مشبوه» بتاريخ ١٩٥٤/٤/١ وقد مر على الثورة بضعة شهور « وهذه القصيدة تسجل حادثا هاما بارزا فى حياة الشعب الجزائرى فقد سنت فرنسا قانونا جديدا لتبيد به الشعب الجزائرى ، قانونا من قوانين « شريعة الغاب » . تعمد اليه كلما أرادت أن تنتقم من الشعب ومن أبنائه، هو قانون « المشبوه » فعندما تريد أن تلقى القبض على أحد توجه اليه هذه التهمة «تهمة المشبوه» لتلقى به فى السجن أو تقتله . والقصيدة تسجل مرحلة هامة من مراحل الأحداث التى مر بها شعبنا وتعطينا صورة صادقة لما كان — وما زال — يتعرض له شعبنا منذ أول الثورة الى اليوم .

يقول الشاعر :

وامضوا لما فى البيت فانتهبوه — قالوا خلوه فانه مشبوه
ما ناله بالكدح قد سلبوه — واذا تأبى للردى وهبوه
لن يرحموه فانه مشبوه

.. ويمضي الشاعر في هذه النغمة المتألمة ، يتحدث عن هـــذا المشبوه الذي قيدوه بالسلاسل ، وساقوه الى حيث يلاقي صنوفا من العذاب ، وألوانا من التعذيب ، وكيف بكى أبوه وأمه وبنوه ٠٠ هؤلاء الصبية الذين لا يعرفون ما معنى المشبوه ! ولماذا يساق أبوهم مغللا في السلاسل ٠٠ فيلوذون بأمهم يسألونها عن كل هذا :

سالوا « بذل اليتم » : اماه لم ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق
قالت ـ وعين القلب تبكي دما ومضرج الخدين صوحه الفراق
قالت : بني ٠٠٠ أبوكمو مشبوه

ثم يتجه الشاعر يطلب اللطف من الله ٠٠ فلماذا هذا الشقاء ٠٠ ؟ ولماذا يتعرض شعب لكل هذه الويلات ٠٠ وليس فيه مجرم واحد ؟ لماذا تشن فرنسا حربها القذرة على شعب لم يعتد على حقوق أحد ؟ .. ثم يختم القصيدة بهذه الزفرة الصادقة :

رباه لطفك ٠٠ ليس فينا مجرم والقوم شنوها على البرآء
حربا عوانا ، نارها تتضرم من وقعها انا لفي بأســاء
رباه لطفك ٠٠ كلنا مشبوه .

ومن الانصاف أن نعترف بأن الشاعر قد بلغ الروعة في هذه القصيدة، ليس فقط لانه عبر عن احساسه تجاه قضية هامة ، وتجاه شعبه الذي تعرض للارهاب في هذه الفترة ، وانما لأن القصيدة تزخر بشتى المعاني والتعابير الملونة الاخاذة ، فهذه البساطة في التعبير ـ قالوا خذوه فانه مشبوه ـ وهذا السؤال البريء الساذج ٠

سالوه بذل اليتم : اماه لمـا ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق

وهذا الجواب البسيط الحزين : قالت بني ٠٠٠ أبوكمو مشبوه ٠

ثم هذا الدعاء الحار الصاعد من الأعماق ، والذي يعبر عن الاحســاس بالظلم الصارخ الذي جرته هذه الحرب على الجزائريين جميعا ٠٠ « رباه لطفك ٠٠ كلنا مشبوه » ٠

هذه الحشود الكثيرة من الصور والتعابير البسيطة ، وهذه النغمة الجياشة المخلصة ، ثم هذا الجو الشاعري الذي يلف القصيدة كلها ، كل هذه الألوان والصور ، تجعلك تحس فعلا بأنك تعيش مع هذا الشعب ، وتشعر بآلمه ، ومن ثم تجعل القصيدة في القمة من الاداء الفني الممتـاز ٠ وكنت أود لو أن الشاعر لم ينقطع عن قول مثل هذه القصيدة التي اعتبرها من درر شعرنا الحديث ٠ ولكن الشاعر مقل ٠٠ لا يقول الشعر الا نادرا ولكنه اذا قال كان شاعرا في قوله وصادقا في احساسه ٠٠ وعواطفه

قلت في أول هذا المقال : أن شعراءنا لم يهتموا الاهتـــمام الكافي بالجوانب الاخرى الهامة في حياة الشعب ، وقلت : ان البعض فقط ٠٠ هم الذين تعرضوا الى هذه النواحي ، ومن هؤلاء الشعراء الذين التفتوا التفاتة سريعة نحو هذه المواضع الحساسة ، من هؤلاء : الشاعر «سعد الله» فقد تحدث في قصيدته (أنشودة المزارع والحقول) تحدث فيها عن حياة

الفلاح الجزائرى ، وعن كده وعرقه وحرمانه ... فى أرض آبائه وأجداده هذا الفلاح الذى لا يجد — ان وجد — سوى كسرة خبز ، وفراش من حصير وكوخا يأوى اليه ... يجتر فيه آلامه وأحزانه وترتع فيه العفونة :

حتام افترش الحصير ؟

واساكن الكوخ الحقير

واساهر الحرمان والألم المرير

وتلوك جنبى الخشـــونة

ويحيطنى قبو العفـــونة ؟

هذه هى حالة الفلاح الجزائرى الذى يعيش حياة رتيبة قاسية .. حياة كلها حرمان وشقاء ، فامسه أسود قاتم ، ويومه مضطرب ، أما الغد فهو مبهم ؛ وهو دائما فى مكانه باق لا يتزحزح .

لا غاية تدنو ... ولا أمل طليق

دنيا من الحرمان والدم والشهيق

فالأمس لوح اســود

واليوم موج يصخب

وغدى طريق مبهـم

وانا هنـــــا ...

أبدا هنـــــا ...

وهذا المقطع يدل على أن الشاعر يجارى به هذه الرومانتيكية فى شعرنا العربى الحديث الذى يميل الى البكاء والانين ، والى الشكاوى .. والتشاؤم الساخط ..

نجد هذه الفكرة — خصوصا — لدى شعرائنا الشباب الذين اغراهم هذا الدرب الغامض ، فذهبوا ينوحون وينتحبون ، فى حين أن الجدير بهم هو العكس .. تماما ، ففى حياة شعبنا العربى ما يدعو الى التفاؤل ، والى الحماس ، لا السخط والتألم والانتحاب .. والا : فكيف نفسر قول « سعد الله » فى وقت كانت الثورة الجزائرية قد بلغت أوجها . هذه الثورة التى قامت لتحرر الفلاح من الفقر والجهل والعبودية .

فاذا كانت حياة الفلاح فى الماضى ، حياة كلها بؤس وألم ، فحاضره كله أمل ، ومستقبله مشرق مضيء ... لا شك فى ذلك .

ويبدو أن الشاعر قد تفطن الى هذا فى آخر قصيدته اذ يقول : —

يا مالكين ...

انا هنـــــا

نحن العبيد ..

شبحا واعصارا مبيد

لاشيء يمنـــع سبيلنا

ان خفقت في الفكم

عزماتنا وصراخنا ..

ويستمر الشاعر في هذه النغمة التفاؤلية التي تتمـــاشى وواقع الجزائر اليوم .. هــذه الارض الخصبة التي سيتحرر فيهـــا العبيد ، ويصبحون سادة في بلادهم البكر الولود :

في أرضنا الملأى بجنات الحصيد .

سنعيش احرارا وصيد

في أرضنا البكر الولود

ولا شك أن هذه الخاتمة هي التي تتماشى وحياة الفلاح الجزائري بل الشعب كله ، سترجع هذه الارض الى أهلها وسيستغلها الفلاح لنفسه .. ويستمتع بخيراتها هو وأبناؤه من بعده .

والملاحظ أن الشاعر « سعد الله » في هذه القصيدة .. قد سار في ركب الشعر الحر الذى تخفف من قيود الخليـــل وأوزانه ، وجارى روح الشعر الحديث . وشعر « سعد الله » في هذه الفترة .. من هذا القبيل وله قصيدة أخرى على هـــذا النمط بعنوان (طريقي) وشعره في هذه المرحلة أكثر حياة من شعره الذي كان يلتزم فيه بحور الخليل وأوزانه فالرمز الذي يتخذه في تعابيره يعطي اشعاعا للشعر ، وروحا نابضـــة بالحس والحركة في تعابيره . وهو يعتبر من رواد الشعر الحـــر في الجزائر .

وله قصيدة أخرى بعنوان (المروحة) ولا يسمح المقام بالحديث عن هذه القصيدة التي لها أهمية كبيرة » فقد تحدث فيها الشاعر عن حادث « المروحة » التي زعمت فرنسا أنها السبب في غزو الجزائر .

وهذا اللون من الالتفات الى تاريخ الجزائر .. قليل في شعرنا ، بل نادر .. الى حد العدم ، في حين أنه منبع يزخر بمادة دسمة للشعر . ففي تاريخ الجزائر – من الحوادث والمواقف والبطولات – ما يصلح أن يكون مادة خصبة لملاحم شعرية باهرة . ولكن شعراءنا – سامحهم الله – تركوا هذه الجوانب وأهملوها ، وهي جزء من حيـــاة الشعب ، بل هي الشعب نفسه .

اننا نود من شعرائنا ان ينقبوا عن صحائف الماضي .. المشرق منها والقاتم ، والمحزن فيها والمسر ، ومن حق الشاعر أن يقـــول الشعر في

الموضوع الذي تنفعل له نفسه ، وتتجاوب معه أحاسيسه ومشاعره ، ولكن ليس من حقه أن ينسى أو يغمض عينيه عن أشياء عاشهـــا الشعب ولن تمحى من ذاكرة الزمن .. لانها تاريخ الانسان في هذه الارض منذ عرف الظلم والعدل ، وعرف الحرب والسلم ، وصارع كل القوى ، قوى الظلم والعدوان . وشعبنا عاش تجارب فذة من واجب شعرائنا أن يسجلوها ويعطوها بعضا من اهتمامهم وعنايتهم ... حتى يوفوا حق الشعر والشعب عليهم .

اننا نريد شيئا من التخصص لدى شعرائنا . وشــيئا آخر من الشمول الذي نبتعد به عن هذا التشابه في الموضوع والاغراض التي يدور حولها شعراؤنا ، ويضربون عليها ، في وتيرة واحدة ، ونغمة واحدة .

نريد تنوعا في الأساليب لا نسخا مكررة معادة .. نريد تنوعا في الموضوعات ، تنوعا في القوالب والصـــور والأخيلة .. ومن ثم جدة في الصياغة والمضمون .. كجدة الثورة الجزائرية الجديدة .

وقبل انتهاء المقال : لا بد من الاشارة الى بعض القصائد لشعرائنا الشبان الذين ألموا الى مثل المواضيع التي تحدثنا عليها . فالشاعر « عبد السلام حبيب » قد اهتز لبطولة الفدائي (محمد بن الصادق) الذي قتل الخائن (علي شكال) .. اغتاله في قلب فرنسا وهو بجوار رئيس الجمهورية الفرنسية « المسيو كوتي » . لقد اهتز الشاعر لهذا الحادث فقال قصيدة بعنوان (مصرع خائن) ، قصـــيدة تعتبر من الشعر الثوري الحديث ، الشعر الحر ، وهي مليئة بشحنات وطاقات تعبيرية موحية . يقول الشاعر :

خذها ودمدم من مسدسه رصاص .
خذها فقد حان القصاص .
الويل لك يا خائن الشعب الجريح
ان تستريح .. حتى تموت
سأقتلك .. باسم الوطن .. باسم الجراح الراعفة .
باسم الجزائر والنضال .. خذها رصاصة ثائر .

وهي قصيدة ، بل ملحمة ، صور فيها هــذا الحادث أجمل تصوير ، صور بطولة الفدائي الجزائري الذي أتى بالأعاجيب ، وصور ذعر فرنسا وخوفها من رصاص هؤلاء الفدائيين .

أما الشاعر « محمد صالح باوه » فقد تحدث عن الثائر .. عن هذا الذي اقسم بالرشاش والمدفع .. وأقسم أن يغسل الجرح برنة البارود .. اقسم بهذا في قصيدته (الثائر) التي يقول فيها :

أقسمت أني بقيدي بجروحي سوف لاتمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقــاد الجموع

وهناك قصائد أخرى أهتم فيها الشعراء ببعض هذه الجوانب ، مثل قصائد صالح الخرفي « الصاعدون ــ عبد بلا أم » وقصيدة الشاعر خمار « ظلال وأصدقاء » ٠

ومع هذا : فمثل هذه القصائد ــ كما أسلفت ــ تعد على الأصابع ٠٠ ونحن في أشد الحاجة الى مثلها ، لانها ٠٠ هي وحدها ٠٠ تبرز حقيقة ثورتنا ، كثورة انسانية تهدف الى تحرير الانسان في الجزائر ٠٠ وفي غير الجزائر ٠٠ وتعطى صورة متكاملة شاملة لكل أفراد الشعب وطبقاته ٠٠ وتبرز ملامح مجتمعنا الجديد الذى يؤمن بالحق والخير والجمال وبالحرية لكل أبناء البشر دون تميز للجنس أو الدين أو اللغة . فهل يفعل شعراؤنا ؟

هل يقومون بهذا الواجب ؟

اننا لمنتظرون ٠٠

حديث الذرة ٠٠ في الشعر

ليس من شك في أن تفجير « القنبلة الذرية » في صحراء الجزائر ٠٠ كان حدثا هاما ، بل كان أبرز حدث شاهده الشعب الجزائرى في حياته أثناء هذه الحرب ٠٠ فالمجازر التي ترتكبها فرنسا في الجزائر ٠٠ تعتبر ــ بالقياس الى هذا الحدث ــ أشياء بسيطة٠ فقد أرادت تدمير الجنس البشرى في هذه الارض ٠ اختارت أرض الجزائر الثائرة بالذات لتبذر فيهاسم «الذرة» ولتنشر الاشعاعالذرى القاتل ٠٠ حتىتبيدالجزائريين بل الافريقيين ٠ انها أرادت أن تشوه الاجيال المقبلة بهذا العمل الاجرامى بل الممعن في الاجرام .

وكان من الطبيعي أن يتأثر شعراؤنا بهذا الحدث الكبير في حياة الجزائر ٠ وان يحسوا بمدى خطورته على الانسان في هذه الارض فتحدث الشاعر « صالح الخرفي » عن هذا الحدث في قصيدة بعنوان « الجنون الذرى » وقد اختار أن يكون حديثه على لسان أم تناجى ولدها الذى يمثل الجيل الذى سيخرج الى الحياة مشوها مريضا ٠ وتدعو ولدها الى الثورة التى تنسف هؤلاء الذين يعبثون بالقيم الانسانية ، ويحتقرون الانسان الذى ولد على هذى الارض ليعيش في سلام ٠

ولدى ــ ان سطت عليك الرزايا ... وأشارت لك السما بالمنايا
وسرى فوقنا غبار مبيد ... فترامت صرعى ألوف الضحايا
ولدى : فانتفض معي ومع الآلا ... ف في ثورة تطير شظايا
تنسف العابثين بالبشر الآمن ... والخانقين روح البرايا

ان هذه الام التى ولدت تحت سماء تغشيه سحب الذرة الغاشمة حق لها أن تبكى ولدها ٠ انها قد افتقدته ، وضاع منها طفلها الصغير فحق لها أن تنوح وتذرف الدمع المر ، انها أم شقية حقا :

ضاع عمرى اذ افتقدت عزيزى ... فيك ، سفر المنى وسحر العيون

واذا رمت أن تبوح بسر خانك النطق فاحتمى بالسكون
فطويت الأحزان فى كفن الصمـت واطرقت مصـــغيا للشجون
ثم اطلقت للأسى لغـــة الدمـع واســـــلمت أمره للجفــون

ان هؤلاء الذين قضوا على هـذا الطفل أن يعيش فى ظلام حالك ، أو ان يحيا كسيحا مقعدا . ان هؤلاء الذين لم يشفقوا على طفولته البريئة لن تنام عيونهم ، ولن تبصر النور ، ولن يتذوقوا للراحة طعما ٠

يا عزيزى لن يبصروا النور والاسـ ــــماع يوما ومقلتـــاك ظلام
لن يسيروا خطى وانت كســـيح ثكلت خطوة الأمور الجسام
ســـهدوا طرفك البرىء بأشبا ح الرزايا . انى لهم أن يناموا ؟
ما لهم فى الحيـــاة راحة قلب وبهم فى الحياة يشقى الانام

ان هؤلاء الذين استغلوا خيرات هذه الأرض .. لن يجدوا سوى أن يجازوها بهذه القنبلة الماحقة ٠

غربت شمس عزهم فاسـتباحوا وطنا شمس عـــزه لا تغيب
وجزاء الجهود قنبـلة التخريـ ـب من هولها تميـــد القـلوب

لقد فجروا هذه القنبلة فى صحراء الجزائر .. بعد أن فشلت قنابلهم الأخرى فى جبالها ، ولكن ذرة الرمل ، مثل صخرة الجبل ، كلتاهما سيان فى الدفاع عن هذه الارض ، فاذا وجد جيش الأعداء فى الجبـــال جليدا وثلوجا تجمد أطرافهم فسيجدون فى الصحراء النـــار لتلفحهم وتلهب أجسامهم .. واذا كانوا قد تاهوا فى مجاهل هذه الجبال ، ففى الصحراء هلاكهم .. وفناؤهم النهائى :

فشلت فى الجبال قنبلة البطش فرموا تفجيرها فى الصحارى
ذرة الرمل ، صخرة الجبـــــل ، ســـيان فى الوفاء للدمار
ان تكن قسوة الجبـــال جليدا ان بطش القفـــار لفحة نار
من يتيه فى مجاهل الاطلس الوعـر ، فصـــحراؤه بغير قرار

أما الشاعر «مفدى زكريا» فهو الآخر قد انفعل لهذا الحادث ، وتأثر بهذه التجربة المدمرة التى فجرتها فرنسا فوق أرضنا ٠٠ لتقضى على الجنس البشرى ، لا فى الجزائر فحسب ، ولكن فى أفريقية كلهـــا ، وقد تحدث الشاعر فى قصيدته : (ابن القنبلة الذرية) عن هذا الطفل الذى أول ما اكتحل عيناه ، تكتحل بغبار الذرة السام . ان هذا الطفل يمثل جيلا كاملا سيخرج الى الحياة وكله عاهات وأمراض ومركبات انه يولد أعمى لا يرى الكون الباسم ، ولا يمشى على هذه الارض الا مقعدا « كسيحا » انه

يولد اخرس لا يتكلم ولا تفرح امه ـ وهي تهدهده في المهد ـ بهذه الكلمة الساحرة :(أماه) .. انه جيل الموت ، جيل الويل ، الجيل المشلول :

ما دهاه .. ويل أمه .. ما دهاه ؟ ويلتاه من جيله ويلتاه ؟
ماله في الحياة يولد أعمى لم تر الكون باسما مقلتاه ؟
ماله مقعدا يحرج رجليه ؟ وماذا جنى فشلت يداه ؟
ماله لم تزل تهدهده الأ م ، ولم تستمع لها اذناه ؟
ماله اخرس تناجيه في المهـ ـد ولم تبتسم لها شفتاه ؟
ولماذا لم يبك بين ذراعيـ ـها دلالا ، ولم يقل : أماه ؟
ألهذا الوجود جاء وحيدا ؟ أم له في زمانه اشباه ؟
ويلتاه من جعله ويلتاه

لقد قذفت به يد الموت الى هذه الحياة ، وسقته فرنسا السم الزعاف قبل ان يخرج الى الوجود ، وعندما خرج .. كان مشوها شكله تشويها مريعا . انه ابن أفريقيا «الشهيد» الذي اتخذت منه فرنسا بتجاربها قربانا لتحطم وهو رضيع ، لقد شوهت خلقته ، وهو بعد : لم يعرف الحياة . ليته لم ير النور ولا خرج الى هذا العالم الحقير ، ليته بقي في السماء كالشعاع الرفيع المنيع .

قذفته الى الحياة يد المو ت فلم يقض في الحياة ربيعا
وسقته السموم في عالم الغيـ ـب فرنسا فجاء شكلا مريعا
ابن افريقيا الشهيد وقد خر على مذبح الطغاة صريعا
تخذت منه « للتجارب » قربانا ، فرنسا فحطمته رضيعا
شوهت خلقه جريمتها الكبرى وجرته للخراب سريعا
ليته ظل في الفضاء بخارا . ليته دام كالشعاع رفيعا
ليته ظل في السماء منيعا

لقد غدا هذا الجيل ، كالشبح ، كالخيال ، فليس هو حيا يرجى ؛ أو ميتا يوارى في التراب .. فيستريح ... انه يعيش في عذاب وبؤس وسط قوم معذبين ، انه جيل العذاب يسعى الى الموت رويدا رويدا ، يجتر يأسه في صمت . ان الداء يطحن جسمه ويحيله الى ذرات سامة ، ولكن ستنبت من حطامه لعنات تطارد فرنسا وتنتقم منها ، وستلطخ فرنسا بالخزي والعار .

شبح كالخيال لم يك كالحـ ـي فيرجى .. ولم يمت فيوارى

عاش خيران فى عـذاب وبؤس بين قوم معذبين حيـارى
ظل يسعى الى الفنـاء رويدا يائسـا لا يغـالب الاقدارا
طحن الداء جسمه واحال الشـ ـلاء ذراته هبـاء فطـارا
نبتت من حطـامه لعنـات كالصـواريخ نقمـة وانفجارا
نازلات على طغـاة فرنسـا لم تزل كالجحيم تقـذف نارا
لقنتهـا عواقب البـغى سرا بث فيها عدل السـماء قرارا
حملتهـا العصور خزيا وعـارا

ان شعب افريقيا الذى ديست كرامته ستنصفه الدنيـا يوما ما ، وسيحكى الزمان ـ للاجيال المقبلة ـ فضائح المدنية الحديثة ، وسينتقم هذا الشعب لكرامته ، وسيثور .. ويسحق فرنسـا الظالمة ، وسيقول لفرنسا . انها هفوة ولعنة للبشرية .

شعب افريقيا ـ ستنصفك الدنـ ـيـا وتصغى الشـعوب الأبية
وسـيحكى هـذا الزمان ويروى للبرايا فضـائح المدنيـة
فخـذ الثأر من فرنسـا وخلد فى الضـحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا .. وقل يافرنسا انت فى الارض هفـوة أزليـة
يافرنسـا .. يا لعنة البشرية

هذه هى رائعة الشاعر « مفدى زكريا » التى صور فيها (تجربة) من أبرز التجارب التى عاشهـا شعبنا فى ثورته الجبارة ، انها قصيدة فريدة فى نوعها ، انها من القلائد القليلة التى تحدثت عن جيل الذرة ، جيل الدمار جيل الشلل والمركبات ، والشاعر « لا يجارى فى مثل هذه المواضيع انه يعرف كيف يعبر عن آلام الانسانية فى نغمة حزينة متألمة »

ولقد أعانه على هذا التعبير هذه الحشـود المختلفة من الاستفهامات التى تثير الانتباه وتوقظ الخيال ، ثم هذه الصور المتراكمة التى تتعانق فى روعة وبيان ساحر ، ثم هذا الوزن الخفيف الخفيف الايقاع ، يرق حينا ، ثم يقوى ويشتد حينـا آخر ، فكأنه البحر ، يهدأ عندما تداعبه نسمات خفيفة ، ثم اذا به هائج مضطرب الى ما ثارت فى أحشـائه الزوابع والأعاصير ، فترى أمواجه تصطخب فى جنون ، وتوشك ان تغرق الأرض ومن عليها .

والشاعر «مفدى» مولع بالاقتباس الى ابعدحد ، يقتبس من القرآن والحكم والأمثال . كما فى قصيدته التى تحدث فيها عن زلزال الاصنام وكما فى قصيدته التى تحدث فيها عن هلال (نوفمبر) وفى هذه القصيدة وبالرغم من اننى لا أميل كثيرا الى هذا اللون من الادب ، ولـكن عند « مفدى » الذى يستعمله بمقدار .. أرانى أشعر بأن له مذاقا خاصا

والقلائل هم الذين يعرفون كيف يستعملون هذا اللون من البيان ، بل البديع .. كما يسميه علماء البلاغة .

وأراني مضطرا للاعتراف بأن قصيدة مفدى أوقع في النفس وأكثر تأثيرا وايحاء من قصيدة الشاعر « صالح الخرفي » فقصيدة « الخرفي » يبدو أن التجربة فيها لم تنضج فالتعبير كثيرا مايصاحبه الاضطراب والتكلف ، وكثيرا ما تغلب عليه النزعة التقريرية . هذه النزعة التي ابتعد عنها «مفدى» كل الابتعاد ، أو بعض الابتعاد على الأقل . ثم أن الموسيقى التي تتخلل قصيدة « الخرفي » رتيبة ، وتسير على وتيرة واحدة مما يجعلها باهتة . فليس فيها تموج أو تنوع كالذي نجده عند «مفدى» . ثم ليس عند « الخرفي » تجديد في الصياغة والتعبير فماذا في هذا المطلع .

ولدي ان سطت عليك الرزايا .. واشارت لك السماء بالمنايا

ان هذا التعبير عادي ، يقوله كل من يريد أن يتأنق في حديثه وليس هو « بحال » من التعابير الشعرية الموحية .

وانظر الى هذا المطلع الذي يوحي بشيء مهول .. بشيء تشتاق الى أن تعرفه .

ما دهاه .. ويل امه .. مادهاه ويلتاه من جيله ويلتاه !

ما له في الحياة يولد اعمى لم تر الكون باسما مقلتاه ؟

وليس غرضنا هنا أن نوازن بين القصيدتين ، أو نقارن بينهما .. بيتا بيتا ، أو فقرة فقرة ، فهذا مما لاتحتمله هذه الدراسة لان ذلك أمر له مقام آخر وانما غرضنا ان ننبه الى تفاوت شعرائنا في تناولهم للتجربة والعمل الفني ، ومضمون القصيدتين واضح ، انه حديث عن تفجير القنبلة الذرية في أرض الجزائر » وماذا ستترك من أثر على الجيل الحاضر والاجيال الآتية ، وقد ادى هذا المضمون «مفدى زكريا» في أبيات قليلة منسقة في حين أن « الخرفي » قد أطنب دون داع للاطناب ، اذ أن قصيدته تبلغ ضعف قصيدة « مفدى » وليس العيب أن يطيل الشاعر ، ولكن العيب أن يطيل ثم لا يقول جديدا .

وعلى أية حال ، ففضل الشاعرين لا يمكن أن ينكر ، فقد كانا من أوائل شعرائنا ، بل ربما كانا الوحيدين اللذين أحسا بهول وعظم هذه الجريمة التي ارتكبتها فرنسا في أرض الوطن وأرادت أن تقضي على الجنس البشري ارضاء لكبرياء زائف ، وطموح أخرق .. على حساب الشعوب المتطلعة الى حياة كريمة وغد أفضل . وستبقى هذه التجربة سبة في تاريخ فرنسا ، ولعنة تطاردها مدى الزمن .. كما قال « مفدى زكريا » .

الحب والثورة

مما يلفت نظر الدارس للشعر الجزائري الحديث .. خلوه من الحديث عن الحب والغزل ، فمن النادر جدا أن تجد أكثر من قصيدة لشاعر جزائري تحدث فيها عن صباباته وأحلام شبابه ، وما أقل من باح

يحبه أو تغزل بمحبوبته ، وهذا يدعو الى التساؤل الكثير . هل شعراؤنا لا يؤمنون بالحب ؟ وهل هم لم يعشقوا مرة واحدة على الأقل في حياتهم ؟ ثم لماذا نجد الشاعر اذا ما تعرض لهذا الموضوع نراه يهمهم ولا يفصح . ويرمز دون أن يصرح ؟

ولست أشك في أن شعراءنا قد مروا بهـــذه التجربة .. فاحبو وتغزلوا ، ولست أشك في أن لهم شعرا يعبر عن عواطفهم وحبهم ، ولكن هناك أشياء تمنعهم من ذكر هذا الحب والتغزل بالمحبوبة . هناك البيئة الصارمة التي يعيش فيها الشاعر ، هذه البيئة التي تعتبر الحديث عن مثل هذه العاطفة ضربا من الخروج عن التقاليد والعادات التي لها المقام الاول في قلوب الناس ، ثم هذه الجدية المتزمتة التي عرف بها الشـعب الجزائري .. الجدية في كل شيء في حياته الخاصة وفي حياته العامة.. هذه الجدية التي تجعل الطفل الصغير لا يحس بطفولته الساذجة والشاب لا يعرف لشبابه طعما ، وهذه الجدية مرجعها فرط الحساســية الكبيرة المبكرة ، ثم الشعور بهوان منزلة الفرد الجـزائري وهو يرزح تحت الحكم الاجنبي .. هذا الحكم الجائر الذي جعله لا يفكر الا في ازالته وتحطيمه !. فهو يحس بالكبت والحرمان والنكد فأنى له أن يلتفت لعواطفه وصبواته، وكيف له أن يتغزل أو يعشق ثم يعبر عن هذا الغزل والعشق ، هـذا هو سبب هذه الجدية التي عهدت في الشعب الجزائري وهذا هو أيضـــا سبب سكوت شعرائنا عن الغزل والحب .

ويجب أن نذكر أنه الى عهد قريب جدا كان التفكير في الزواج فقط يعد ضربا من المروق ، وضربا من خيـــانة الضمير . وقد حرم الكثير من شبابنا الزواج على أنفسهم ما دام وطنهم يرزح تحت حكم الاجنبي ، هـذا شيء يعرفه الكثير من شبابنا ويعرفه الكثير منا . ولعل هذين البيتين من الشاعر (اللقاني) يعبران بجلاء عن حقيقة ما ذكرنا ، يقول الشاعر :

الا .. فدع التغــزل في غوان ... فتلك طريقة المستهترينـــــا

فمن صـــوت البلاد لنـــا نداء ... يكاد المرء يســـمعه انينـــا

هذه ليست وجهة نظر الشـــاعر فقط . بل انها هي الفـكرة التي سيطرت على الشعب الجزائري منذ رزح تحت الحكم الاجنبي وذاق منـــه المرارة التي لم يذقها أي شعب من الشعوب التي ابتليت بالاســــتعمار الغربي الحديث . ومن ثمة فقد قل الغزل وذكر الحب في شعرنا . وكثر الحديث عن النواحي الاخرى . خاصة : الناحية السياسية والوطنيـــة ، وهذه الاسباب نفسها .. هي التي مالت بشعرنا الى الاكثـار من الحديث عن السياسة والحياة الاجتماعية الاخرى .

والذين تحدثوا عن صباباتهم .. كانت تعابيرهم خجلى مرتعشـــة ، تشي باستحيائهم من الخوض في مثل هذا الموضوع .. ولكن شـــعراءنا الشبان .. قد خرجوا على هذه القاعدة ، وتحرروا من هذا الحصـــار الذي ضرب على شعرنا وجعله يعيش في دائرة ضيقة . لقد أعلنوا ثورتهم عـلى

هذا المفهوم الذى لا يقره الفن .. الفن الذى يأبى التقييد ، ولا يعيش الا في الهواء الطلق ، والأجواء الرحبة الحـــرة ، والآفاق المترامية .. غير المحدودة ، خرج شعراؤنا الشبان عن هذا الجمود ، وتحـــدثوا عن الحب والغرام . وليس هذا وجه الامتياز فى شعرهم ، بل : ان الامتياز .. هو ربطهم هذه التجربة بتجربة شعبهم ونضاله الجبار من أجل الحرية. ربطوا الحب بالحرب والثورة ، ربطوا عواطفهم بعواطف شعبهم ، ووفوا لانفسهم ولشعبهم .

ومن هؤلاء الشعراء « سعد الله » و « صالح الخرفى » . فقد تحـدثا عن الحب دون مواربة أو تقية . ويبدو ان « سعد الله » كان أسبق شعرائنا الشباب الى التغزل وذكر الأحبه . فقد نشر عدة قصائد، البعض منهـــا قبل الثورة ، وشعره .. فى هذه الفترة.. كان (غائما) ، أعنى مزيجا من القديم .. كما فى قصيدته : (الجمال الحالم) و « أطيـــاف » . وهو الى التقليد أقرب منه الى التجديد ، ويقول فى مطلع القصيدة الاولى :

اضفى الوجــود مداك فى الالوان   وجلاك معرض للخلود الهـــانى
تجثو الحقائق من ســـموك ركعا   وتفيض فيك جـــداول الايمان

ويقول فى مطلع الثانية :

ذاك طيف الهوى واحـــلام انسى   ام خيـــال الجوى واشباح بؤسى
هذى جنـــة الحيـــاة وهذى   روضة الموت فى سبيل التاسى

فهذه التعابير ـ تجثو الحقائق ركعا ـ خيال الجوى ـ هذه جنـــة الحياة ـ تعابير يبدو عليها التكلف والاضطراب . ولا تدل على أن الشاعر قد ملك ناصية القول . وهذه هى السمة التى تغلب على الشـــاعر فى أول حياته من قول الشعر . ولكن « سعد الله » قد تطور فى قصائده الجديدة الاخرى التى تبرهن على أنه أخذ يرتقى بسلم الشعر الحقيقى ، سواء منهـــا ما كان فى الغزل أو فى غيره من الاغراض الاخرى ، ففى قصيدته : (ثائر وحب) التى تحدث فيها على لسان ثائر فى الجبل ، ترك محبوبته ليلتحق بالجبال ، يكافح مع اخوانه ويجاهد أعداء بلاده . هذا الثائر الذى لم ينس حبيبته وحبه .. وهو فى وسط المعركة :

أوراس والـــدماء والعـــرق
وصـــفحة الســـماء والغسق
والأفق المحموم راعف حنق
كـــانه وجـــودى القلـــق
قد ظمئت عيـــونه الى الفلق
وســـال من أطرافه دم الشفق
ونجمه من الشمال تحترق
كقلبى الـــذى يـــدق
بذكـــرك العبـــق
حبيبتى ..

ثم يتابع الشاعر ذكر المناظر الاخرى التي يعيش بينها الشـــــاعر .
يذكر الاطلس ، وغابة البلوط ، والنهر ، والضفة الخرساء * والصـــخر
المنتشرة ، ثم ... صوت المحبوبة الذى لم يضع بين هذه الاشياء كلهـــا
وذلك الحب النضر الذي يذكره لحبيبته .

والاطلس الانوف والبطــاح
محمــرة الخــدود بالجراح
وغابة البلوط كالاشـــباح
ترقصــــها عواصف الرياح
ثائرة مهتـــاجة الـــكفاح
والنهر والغيــوم والســمر
والضفة الخرســاء والصخر
منتشر .. وزائر القمـــــر
يطــــل فى حـــــذر
من كوة مطموســـة البصر
وصـــوتك الحلو النغـــم
فى مسمعى كرعشـــة الحلم
كخفقـــة الصباح المنتظـــر
وحبنــــا النضـــر
حبيبتى ..

ويستمر الشاعر فى هذا النغم العذب ، وفى هذا الايقاع الجميـــل
يعبر عن الحب والثورة .. هذه الثورة التي زحفت فيها الجموع فى عزم
وقوة ، رافعة العلم .. فى شموخ الى الغد الباسم المنشود .

وهـــذى الجموع الزاحفة
بعـــزمة كالعاصـــفة
خفـــاقة البنـــود
الى الغـــد المنشـــود

هذه بعض الفقرات من هذه القصيدة الرائعة التى تبين الفرق بين
«سعد الله» فى أول الطريق ، ثم وهو يرتقى سلم الشعر الحق . ان هذه
الحشود والصور البيانية الاخاذة من مثل «الأفق المحموم » «الراعف الحنق»
الذى يعبر عن الدم والثورة ، وهذه «البطاح .. محمرة الخدود بالجراح»
وهذه « الغابات .. ثائرة مهتاجة الكفاح » .. كل هذه .. صور جديدة فى
شـــعرنا الحديث انها بداية طيبة لأديب عربى فى الجزائر ، سيزدهر ،
وسيثمر ثمرة طيبة .

وهكذا نرى ان شعراءنا قد ربطوا الحب بالكفاح ، وخرجوا من دائرة
التقليد السخيف الى مجالات أرحب وأجمل . فلم نعد نســـمع البكاء
والنحيب والتأوه المريض الذى «مرض» به شعراؤنا عندما يتحـــدثون عن
صباباتهم وأحلام صباهم .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر شاب آخر ، هو « صـــالح الخرفى »

قصيدة اعجبت بها جدا . ووجدت فيها ما افتقدته فى الشعر الجزائرى من نغمة حلوة شجية ، ونبرة عذبة رقيقة ، وموسيقى تهز النفوس الشفافة الحساسة قصيدة ربط فيها الشاعر بين الحب والثورة .. حبيبة تحن الى عش الغرام الذى بات خاويا مرعبا بعد أن فارقه الحبيب الى ذرى الجبال .. هى قصيدة (نداء الضمير) التى تجعلك تعطف على هذه الحبيبة التى تحن الى حبيبها ، وقد أرقها هذا الحنين ، وأضناها الشوق الى فارسها الثائر :

يا حبيبى . ذكريات الامس لم تبرح خيالى
كيف تغفو مقلتى عن حبنا عبر الليالى

وهى تستعطف حبيبها وترجوه ألا يلومها اذا ما فرق الزمن بينهما فهى لا زالت على الحب والوفاء :

لا تلمنى ، ان ترامت بى أمواج البعاد .
لا تلمنى ، لم يزل يخفق للحب فؤادى .

فهذا القلب الذى يخفق بالحب ، قد اهتز كذلك الى نداءات الأحرار من أبناء العروبة الذين رفعوا راية النضال :

غير أن القلب هزته نداءات شجية .
صعدتها فى دجى الليل قلوب عربية .

ووراء هذه النداءات ، وهذه الاصوات ، رأت أعلام النصر تخفق ، فوهبت حبها قربانا للجزائر :

وتراءت لى وراء الصوت اعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر

فقد كانت الجزائر بالأمس ربعا خصبا لذكريات الحب المعطرة ، ولكنها اليوم أصبحت مأوى ذئاب جائعة الى الدم ، تكدر صفو الحب والحياة :

يا حبيبى ربعنا بالأمس ربع الذكريات .
انه مأوى ذئاب كدرت صفو الحياة

هذا الربع الذى كان عشا لتناجى ، وأنسا ونعيما ! امسى اليوم نارا وجحيما :

كان عشنا للتناجى كان انسا ونعيما
ثم أمسى للرؤى الغضة نارا وجحيما

وكم فرش الحبيبان هذا العش بالورود .. ونثرا فوقه الزهور .. وكم بنيا لأحلامهما وحبهما من قصور . ولكن الاحلام والأمانى .. بددتها هذه الصرخة المرعبة صرخة : الحرب والدم ، فاستحال الورد : شوكا ، ودماء ، وضحايا :

يا حبيبى كم فرشنا الربع وردا وزهورا

كم بنينـــا من هوانا لأمانينـــا قصورا
فتعالت صرخة الرعب بأشـــباح المنـايا
فاستحال الورد شوكا ودماء وضـــحايا

وهي لم تخن حبها لثائرها المعبود ، بيد أن حبها انقلب الى ثورة بين الضلوع على هذا العدو الاجنبى ، انها ما زالت تحب فارسها .. وهو يقف كالنسر فوق الاطلس الشامخ :

يا حبيبي لم اخن عهـــدي ولا خنت هوايا
غـــير ان الحب أمسى ثورة بين الحنـايا
لك حبى في ذرى الاطلس فى تلك الروابى
فهنـــاك الأفق الرحب لاحـــلام الشباب

انها تحتفظ بحبها حتى تلقى محبوبها ..وقد عم البشر أرض الجزائر وبدا فجر انتصـــارها .. وقد غمر الكون بتباشيره واضوائه وعندئذ ستعانق حبيبها الثائر ، ويبنيان عشهما .. فى ظل تحرير الجزائر :

لك حبى يوم تعلو بســـمة النصر ثرانا
ويذيب الليـــــل والآلام بحر من دمانا
سوف القاك مع النصر وأفراح البشـــائر
سوف نبني عشنا فى ظل تحرير الجزائر

وانا لا أستطيع أن أخفى اعجابى بهذه القصيدة التى صورت أجمـل تصوير حياة حبيبين فرقت بينهما الحرب ، وقضت على أحـــلامهما التى عاشا عليها زمنا طويلا . وأنها قصيدة ، بل : قصة انســـــانية رائعة ، قصة فتاة وفتى قد نعما بالحب فترة .. ثم اذ بهما يجدان نفسيهما وقد تفرقا .. تفرقا من أجل هدف سام ، ومن أجل تحرير وطنهما واســتحال ربع ذكرياتهما الى خراب ، تنعق فيه غربان الشؤم ، وتعبث فيه فسادا .. ذئاب أجنبية مسعورة .

هذه بعض النماذج التى تصور الحب فى الثورة ، أو ثورة الحب .. وهى شيء جديد لم نألفه فى شعرنا الجزائرى الحديث . ولكنها الثورة التى غيرت مفاهيم كثيرة ، ومنها مفهوم الحب والغزل ، وحـــررت الافكار من القوالب الجامدة ، سواء فى التعبير أو المضمون . ومع هذا فلا زلنـــــا نحس بأن شعرنا يحتاج الى مثل هذه اللمسات الرقيقة ، والى هذه الخفقات الحلوة الجذابة ، والى هذه الالتفاتات الانسانية الوديعة ، وعسى أن يتدارك شعراؤنا هذا النقص ، ولا ينقصهم سوى الاهتمام ، فالمواهب متوافرة ، والتجربة أمامهم ضخمة تشمل شعبا كاملا يحب ويتألم ، وهم جـــديرون بأن يعبروا عن حبه وآلامه ، وعن عواطفه وأحلامه ، وعن آدميته وانسانيته وهم مسئولون عن ذلك الى حد كبير .

وهكذا رأينا ـ فى دراستنا لشعر الثـــورة ـ كيف أنه تطور تطورا محسوسا من ناحية التعبير والمحتوى .. معا . فقد ظهرت فيـــه قوالب جديدة ، تنزع الى التحرر فى التعبير . والتحرر فى الصياغة ، والابتعاد

عن الاساليب الجامدة التى سيطرت على الشعر زمنا طويلا ، أساليب أشبه بالجثث المحنطة ، والاثواب المرقعة ·

اختفت الطنطنة الفارغة ، وظهرت الثورة ··· حتى فى التعبير نفسه، التعبير الذى يهدف الى الاصالة والعمق ، والى الأداء الفنى الصحيح ، والذى يقرب شعرنا من قمه الفن الجميل الذى يسعى الى المتعه العقلية والذهنية والعاطفية · وقد يكون شعرنا لا زال بعد ·· لم يصل الى الذروة الفنية · ولكنه يسعى جاهدا ليصل اليها مع طول الزمن . ومع طول التجربة والمران · فقد حطم القوقعة التى كانت تضرب بينه وبين حياة الفن حجابا صفيقا ، وخرج الى الدنيا الرحبه الواسعة ليأخذ ويتطعم من هذه التجارب الجديدة التى عرفها غيرنا ، ووصل فيها الى مذاهب جديدة ، وفنون جديدة ، والوان من الفن الجميل الذى يهدف الى الحق والخير والجمال .

كما انه من ناحيه الموضوع أخذ يبحث عن أشياء جديدة · أخذ يبحث عنها ليجرب حظه فيها · وبدت نظرته أكثر شمولا واتساعا عن ذى قبل · بدأ يربط بين التجربة الذاتية والتجربة الشعبية ثم التجربة الانسانية . كما تعددت أغراض الشعر ونواحيه . نتيجة للتجربة الثورية الفذةالتى يعيشها ··· شعبنا ··· منذ سبع سنين ·

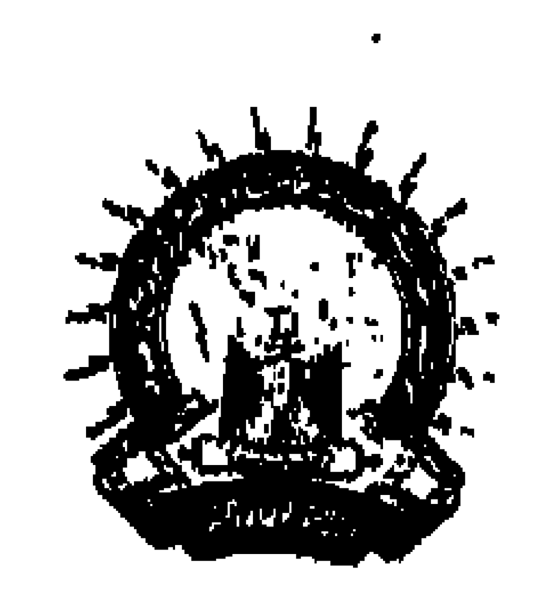
هذه التجربة شملت كل نواحى المجتمع ، وهزت كيان الشعب من الاعماق بكل طبقاته وأفراده · فكان من الطبيعى ـ بل من الاكيد ـ أن يلتفت شعر الثورة الى ما فى هذه الثورة من عمق ، وشمول ، ومثالية ، وقيم جديدة · وكان من الضرورى ألا يبقى محصورا بين جدران السياسة فيسير وراءها ـ يغنى لها وحدها دون أن يلتفت الى المنابع الاخرى التى يزخر بها شعبنا فى هذه المرحلة الحاسمة من حياته وتطوره التاريخى الهائل · وقد مرت بنا الشواهد على هذا فلا داعى لاعادتها مرة أخرى ·

بيد أنه لا يفهم من هذا : ان الشعر الثورى قد بلغ مرحلة النضج التام والاكتمال الفنى الكامل · بل انه لا بد من جهود أخرى تبذل فى هذا السبيل ، حتى تبلغ مستوى ما بلغه الشعر فى بعض البلدان العربية التى سبقتنا فى هذا المضمار ·

هناك ملامح للشعر الثورى عندنا ··· تنقصها الخبرة الفنية ، والاداء التكنيكي للقصيدة ، وبقدر ماتنقصنا هذه الخبرة ... تزخر عندنا التجربة الحية كاملة ، فأغلب شعرائنا عاشوا تجارب شعبهم ولهم رصيد كبير من هذه التجارب ، فلا ينقصهم سوى التعبير عن هذه التجارب بأسلوب جديد يتماشى وجدة ثورتنا الخلاقة المبدعة . والشعب الذى اتى بالأعاجيب فى ميادين الكفاح والنضال ... جدير بأن يأتى بالأعجب فى ميادين الفكر والادب والثقافة · وأنا لا أتكهن هنا عندما أقول : انه فى المستقبل القريب سنشاهد أدبا خلاقا .. بأتم معنى الكلمة عندنا ، سنشاهد أدبا عربيا جديدا فى الجزائر ··· يسهم فى دعم الادب العربى الثورى الحديث ..

تم بحمد الله

فهرس الموضوعات



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبية - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ١٧٨ الثمن ١٠ قروش